محمّد المجذوب

صُورٌ مِن حَياتِنا

قصص اجتماعية

طبعة ثانية منقّحة ومزيدة

مؤسسة الرسالة

محمّد المجذوب

صُوَرٌ من حياتنا

قصص اجتماعية

طبعة ثانية منقّحة ومزيدة

مؤسّسة الرسالة

١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م
الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

* إلى الذين حبسوا أقلامهم على الحقيقة يكشفونها للناس ليضيئوا لهم طريق الحياة ..

* إلى الذين آمنوا بالواجب . فنزهوا أدبهم عن لغو القول ووضعوا مواهبهم في خدمة الفضيلة .

* إلى الذين يسكبون أرواحهم رِياً لكل ظامىء . وأُنساً لكل تائه . وعزاءً لكل محزون . ثم لا يجدون من يبل ظمأهم . أو يؤنس غربتهم . أو يضمد جراحهم ...

إلى هؤلاء الجنود المجهولين

اقدم هذا الكتاب

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

قرأت مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب فاذا أنا متصل بواقعها النفسي والفكري . حتى لا أكاد أجد حاجة لاضافة شيء إليها . على الرغم من الاثنتين وعشرين سنة التي تفصل بين تاريخها ويومي هذا .

وإذا كان لي ما أقوله في تقديم هذه الطبعة — الثانية — فهو توكيد ما ذهبت اليه هناك . ثم تسجيل هذه الحقيقة الشعورية وهي ان صلة هذه القصص بنفسي لم تفتر قط . بل إن بينها قصصاً كتبتها يوم كتبتها وأنا أبكي . وأقرؤها اليوم فأشعر أنني في حاجة إلى مثل ذلك البكاء .

واخيراً لا بد من الاشارة إلى بعض التغيير الذي طرأ على هذه القصص . فقد عزلت عنها الحواريتين (بين قلبين) و (معجزة الايمان) لأضمهما إلى مجموعة الحواريات التي قررت أن أفردها في مجلد خاص ، وعوضتها عنهما بقصتين جديدتين لم تنشرا من قبل . هما (ابو طافش) و (اليكم المجرم) اللتان لن تجدا نفسيهما غريبتين عن المجموعة . لأنهما من الأسرة نفسها . وتسجلان قصتين لا غنى عنهما في (صور من حياتنا) .

والله الموفق ..

المؤلف

مقدمة الطبعة الأولى

يا صديقي القارىء

قد تنتظر مني كلمة أقدمها اليك بين يدي قصصي هذه ، أحدثك فيها عن مفهومي لهذا الضرب من الادب الذي اعرض عنه أدباء الشام ، أو أوشكوا ان يعرضوا عنه بعد أن أقبلوا عليه يوماً ما . وكأنهم يئسوا من احكامه ، أو أيأسهم انصراف القراء إلى ذلك النوع الرخيص من الادب الذي بات يملأ معظم الصحف . ! ولقد كان من حقي ان اكتب اليك هذه الكلمة لو اسعفني الوقت ، ولولا انني اوثر ان ادع تقدير هذا المفهوم لما ستقع عليه في أثناء كتابي هذا من خطوط قد تأتلف او تختلف عما في نفسك من موازين لهذا الفن .

واذن فلن تجد في كلمتي هذه مقدمة . ولكنها ملاحظات عجلى يسرني أن أبدأ بها حديثي اليك في هذه المرحلة التي ستطوف بها خلال هذه الفصول من كتابي . فنحن يا صديقي ، رفيقا سفرٍ إلى حين . وليس من الأدب أن ادعوك لمرافقتي ثم أتجاهل وجودك فنقطع الطريق في صمت مطبق .

بين يديك صفحات اودعتها طائفة من مشاعري وافكاري . متمثلة في انواع شتى من الاشخاص . وبالرغم من صلتها الوثيقة بنفسي فما أحسبها غريبة عنك . بل ليخيل إليّ انك ستتساءل عن هويات هؤلاء الشخوص الذين يحملون اليك هذه الافكار والمشاعر . فتريد ان تستيقن من معرفتك لهم . ومن لقائك اياهم . ذلك لانك تحس ملء قلبك ان مثل هؤلاء يملئون عالمك وتعيش معهم اينما كنت من هذه الديار . لذلك كان لا بد لي من أن أقول لك انه لا يعنيني . واحب ان لا يعنيك كذلك . هويات هؤلاء الاشخاص . فالمهم أولا ان يكونوا امناء في نقل ما أردت نقله اليك من واقعك الذي تعيشه . اما واقعهم انفسهم . وما اذا كانوا قد وجدوا حقاً في هذه الحياة . فذلك أمر لا قيمة له البتة في نظر الفن . وأنت تعلم . كما اتمنى . ان للفن حريته في ابداع الشخوص والحوادث حتى في (السطو) على حقائق التاريخ – أحياناً – بحيث يتسنى لصاحبه ان يبني من هذا وذاك العالم الذي يشاء . لا يبالي بغير منطقه الخاص الذي هو منطق « الحقيقة الفنية » .

وقد يختلف كذلك مفهوم الحقيقة الفنية بيني وبينك . ولكني مقتنع بما أفهمه من انها الاسلوب الذي يصور الحياة على الوجه الذي (يمكن) ان تتم فيه . لا الذي تمت فيه فعلاً .. فذلك عمل آخر هو أعلق باساليب العلم والتاريخ منه باسلوب الفن .

ولعلك قد قرأت يا صديقي كتاب الدكتور طه حسين « المعذبون في الارض » فأدركت هذه الحقيقة التي اسلفتها :

ان اولئك المعذبين اناس يحملون اليك بكل امانة رسالة المؤلف فتحسب انك عرفتهم . وعشت معهم . واستمعت لأحاديثهم ، ومن يدري فقد لا يكون لهؤلاء المخلوقات من وجود في غير خيال الكاتب . ولكن المهم في أمرهم انهم يمثلون حقيقة فنية تنعكس على صفحاتها صور الحقيقة نفسها .

وهذا نفس ما اردت ان الفت نظرك اليه : ان هؤلاء « المساكين » الذين ستلتقيهم في فصولي هذه . والذين ستطل على دنياهم فتشهد آمالهم واحلامهم وآلامهم .. ليس لزاماً أن يكونوا من مواليد المجتمع المسجلين في دفاتر النفوس ، او من مواليد الخيال الابداعي المنبثق من أعماق النفوس ، ولكن المرجو ان يصوروا لك في اخلاص وصدق واقع الحياة كما هو ، وثق ان خير ما آمله من هذا الكتاب هو ان انتهي بك إلى هذه النتيجة التي تؤكد لي انني نجحت في عملي . وأنني بلغت رسالتي تامة كاملة ، لانني استطعت ان اضع يدك على (صور من حياتنا) .

واخيراً .. من هنا الطريق يا صديقي ! .

وإلى اللقاء ...

١٤ جمادي الآخرة سنة ١٣٦٩ هـ — **محمد المجذوب**

٢ نيسان سنة ١٩٥٠ م

عواصف

... بدأ هذا قبل نصف قرن ، يوم صحبت أحد الرفاق إلى بيت الشيخ حسن ، ولا أزال أتذكر جيداً كيف حاولت أن أحتفظ برصانتي في ذلك المجلس الذي طلعت عليه لأول مرة ، فرأيت فيه من أعرف ومن لا أعرف ، فكان لزاماً على حدث مثلي أن يصبِرَ نفسه عن الكلام ريثما يخبر جو المكان فيعرف ما يحسن أن يأخذ ، وما يحسن ان يترك . ثم ما لبثت في الأيام التاليات أن أصبحت واحداً من القوم ، أشارك في حديثهم وأستمع إلى نقاشهم فأزداد مع التكرار خبرة ومرانة .

وكان بيت « الشيخ حسن » ذلك العهد ندوة طرطوس الأدبية والعلمية والاجتماعية . تتمثل في سُمّاره أوضاع البلد ، ففيهم المعلم الابتدائي وفيهم التلميذ الأزهري وفيهم الشاب الحدث ، وفيهم الشيخ الطاعن في السن ، وفيهم التاجر والصانع والجاهل .. لا يكاد يقدم المساء حتّى ينتظموا جميعاً في قاعة السهرة ، وما كان في البيت قاعة مخصصة للسهرة إذ لم يكن فيه من السكان سوى الشيخ حسن الذي يقضي نهاره في تعليم

الأطفال حتى إذا جاء وقت العصر انفتل إلى صلاته ثم إلى إعداد طعامه ، فلا يقبل الليل حتى يكون مغموراً في هذا الجو الصاخب من احاديث الرفاق وقهقهتهم . وهم يملأون إحدى الغرفتين أو كلتيهما .. وكثيراً ما يمتد بهؤلاء أو بعضهم المقام في ليالي الصيف . حتى يدركهم الصباح مستلقياً كل في مكانه على الحصير أو فوق المفرش المعد للزائرين على جوانب الجدران .

وكثيراً ما كان هذا البيت ينقلب مطعماً أو مطبخاً لهؤلاء الرفقة . يقدم كل منهم ما يستطيعه لاعداد الطعام المشترك أو الحلوى . بل كثيراً ما ينقلب مقصفاً لهم يحيون فيه بعض الليالي في الغناء والرقص فتعرض فيه الأصوات المختلفة من القبيح والجميل . وقليل ما هو . وتقدم فيه التمثيليات المرتجلة من هزلية وجدية . ثم يستهويهم ذلك . فاذا هنالك حلقة مختارة تتمرن على التمثيل لتعرض نفسها على مسرح البلدة في حفلات تخصص ريعها لمعونة الفقراء . أو لاسعاف المنكوبين في البلدان الاخرى من الوطن العربي قياماً بواجب المدينة .

وكان طبيعياً أن تستمر هذه الحياة طويلاً . لأن للشيخ حسن وضعاً خاصاً يساعد على هـــذا الاستمرار . فهو رجـــل مقعد أصيب بالكساح منذ طفولته حتى كان يُعرف بين أترابه باسم (العاجز) . وقد أفرغ عليه هذا (العجز) نزوعاً إلى الاجتماع بالناس عندما رأى نفسه مضطراً لملازمة بيته . فكانت فرصة لاستقباله الزائرين وإكرامهم ثم لاعداد منزله الصغير لسهراتهم هذه .

ويظهر أن إقبال هؤلاء الرفاق عليه قد خفف عنه بعض وحشته . حتى كاد ينسيه شعوره بنقص جسمه . فكان منبعاً لا ينضب من المرح والنكات الخفيفة . يشارك إخوانه في ألعابهم وأحاديثهم . ولكن في شيء من التحفظ الملحوظ . إذ كان يأبى أن يعطي نفسه رغبتها في العبث . حتى قلما تلمح على وجهه انفعالات الضحك ، فكان إذا عمد إلى الضحكة أخرجها ابتسامة خفيفة ترتسم في غلالة من الكآبة تبعثك على التحفظ . ولذلك كنت تسمع بعض المقربين من رفاقه يحاولون أحياناً السخرية من هذا المظهر فيقولون : « إن الشيخ لا يريد أن يتنازل عن تظاهره بوقار المعلم أمام صغاره ! » .

ومن الحق انك تظلم الشيخ حسناً عندما تظن فيه العجز المطلق بسبب عاهته . ذلك لأنه . وإن فقد قوة المشي على قدميه . فهو أبداً في سوْرةٍ من النشاط الغريب تكاد لا تعرف الخمود ولا الفتور . لقد استعاض عن قدرة الانتصاب بقدرة الحبْو . فتراه ينتقل إلى حيث شاء دابّاً على أصابع يديه وظاهر قدميه في خفة ورشاقة . رافعاً صدره إلى أعلى ما في وسعه . كأنه يريد أن يبرهن لك متعمداً عن ذخيرته من النشاط والحيوية .

أما تلك الكآبة فلعله قد احتفظ بها منذ طفولته . أيام كان يجوب الأسواق في طريقه من البيت إلى الكتاب . وقد اجتمع حوله الأطفال يتفرسون في هيئته ويتعجبون من قدرته على تلك السرعة . وقد جعل في يديه قبقابه الخشبي يضرب به الأرض . فيترامى على أسماعهم منه ذلك النغم الرتيب . وقد

ضاق هو بتجمعهم عليه فزاد من نشاطه ليصل إلى مقره من الكتاب ، حيث يخلص من تلك الكلمة الثقيلة التي كان يتلقاها من أفواههم طوال الطريق : (العاجز) ! .

ومن يدري فقد يكون من عوامل هذه الكآبة أيضاً . مضافاً لذلك . ما ناله بعد مغادرته الكتاب من اعتداءات الجنود الفرنسيين إبان الاحتلال . يوم باشر حياته الثانية بافتتاح حانوت صغير يبيع فيه بعض السلع الصغيرة. فيمر به هؤلاء الجنود وقد تعتعهم السكر . وفرضوا على الناس أن يؤدوا لهم التحية ، فيرفع يده إلى رأسه إعظاماً لهم ، ولكنهم لا يكتفون منه بذلك ، ويعدون إحجامه عن الوقوف لهم استخفافاً بهم . فينهالون عليه لكماً وضرباً ، وعلى سلعه تبديداً ونهباً .. دون أن يعبئوا بإشارته لحالة قدميه . كأنهم لا يريدون أن يصدقوا أن مثل هذا الجسم القوي النشيط . ومثل هذا الوجه الجميل ذي العينين الواسعتين الصافيتين . والتقاسم المتناسبة الجذابة . والبشرة البيضاء المشربة بالحمرة .. أن مثل هذا الهيكل الصحيح الحي يمكن ان ينتهي بساقين ميتتين لا حياة فيهما ! .

أجل .. قد يكون لذلك الماضي الحزين المشئوم يد في خلق هذه الكآبة. ولكن شيئاً آخر فوق ذاك كان جديراً بأن يغمسه في هذه الكآبة، مهما يكن في حياته الجديدة من المرح والانسجام. ذلك هو شعوره الخفي بقصوره عن هذه اللذائذ التي يتحدث بها رفاقه مما لا يتاح مثلها للمقعدين ، ولذلك ثارت في قلبه رغبة التمرد على قيده الطبيعي ، فما هو إلا أن توفرت له مجموعة

صالحة من النقود حتى غادر طرطوس في رحلة واسعة . يجوب فيها البلاد الشامية مصطحباً أحد هؤلاء الرفاق ممن يثق بإخلاصهم له وصبرهم عليه . ولما عاد من رحلته تلك أحس كأنه استكمل بعض النقص . فجعل يشارك سماره في ما يأخذون به من أحاديث عن البلاد . مشاركة المشاهد الذي لا يكتفي بالنظر حتى يضيف إليه الدرس والملاحظة .

وكأنما بقي عليه ان يستدرك نقائصه الأخريات واحدة فواحدة . فعمد إلى الكتب يقتني امسّها بحياة المجالس . فيخلو اليها بعض أوقاته . ثم يطرح ما حفظ منها على جلسائه ، فيشغلهم بالجدل والمناظرة حتى يكونوا بحاجة إلى الرأي الحاسم فيفاجئهم به . وقد أعمل فيه تعليله وتخريجه . بحيث يأتي وكأنه من قلبه لا من كتابه . وهكذا أصبح الشيخ حسن مرجع الخلاف في كثير من الشئون التي تدور في مجالسه ، والتي كان يسره أن يذكيها بين المتحاورين .

وطبيعي أن مثل هذه المجالس لم تكن مما يحتاج إلى كبير علم . إذ لم يكن بين القوم من يحسن الخوض في المشاكل أو الشؤون الكبيرة . وإنما هي لُمَعٌ من التاريخ العربي . أو لمحات من أخبار العلوم الحديثة ، أو أبيات من الشعر المعقدة . أو شواهد من الصرف والنحو تُختار لغرض التعجيز .

والجلساء أنفسهم لم يكونوا جميعاً من ذلك الطراز الذي يصلح لفهم هذه الشئون . بل أكثرهم من الذين يستمعون او لا

يحسنون الاستماع . وكثيراً ما حدث أن رموا بعض المتكلمين بالزندقة . لا لشيء سوى أنهم ذكروا حديثاً شريفاً أو آية كريمة . فيعتبرون هذا (فلسفة) أو تهجماً على الدين ! .

وإذا نحن أغضينا عن ذكر هؤلاء (الجاهلين) وعمدنا إلى الآخرين من المشاركين في الحديث (العلمي) رأيناهم أقرب إلى الجهل منهم إلى العلم . ولكنهم مع ذلك أنموذج شائق من الناس الذين اختلفت عقولهم ومشاربهم كل الاختلاف .

فهناك المعلم (تقي الدين) وهو شيخ في الستين من عمره ، قضى أكثر حياته معلماً ومديراً في المدارس الأولية التركية ثم الفرنسية . فهو يعتقد أنه مخزن علم . ولكنه في الحقيقة لا يحسن شيئاً اكثر من الاعتراض على كل ما يسمع بالحق أو الباطل .

وهناك المعلم الآخر (توفيق) وكان أول أمره عامل بناء . حضر بعض دروس في اللغة على أحد الشيوخ . فلما جاء العهد الفرنسي عُيّن معلماً لاحدى القرى . فاضطر للاتصال ببعض الكتب والصحف . فكان كلما اجتمع لديه شيء منها عمد إلى طرحه للمناقشة . وجثا على ركبتيه ينازل كل مهاجم له في حماسة لا تستند إلى وعي . يضاف إلى ذلك انه كان يدعي التحرر والتجدد . فهو لا يذكر موضوعاً إلا اردفه بقائمة من اسماء الفلاسفة الغربيين والكتاب العرب المجددين . فيكون بذلك على خلاف مستمر مع (تقي الدين) الذي كان يمثل بدوره المحافظة غير الواعية . فلا يذكر توفيق واحداً من رجال قائمته حتى يرميه بالكفر والمروق .

ثم هناك (محمد...) وهو عامل دباغة. في ثوبه شخصية عجيبة تدفعه إلى ان يجعل من نفسه مراقب المجلس . فهو موكل بالاستهزاء بكل من الرجلين بخاصة . وبكل من المتكلمين عامة . وكان زاد هذا الأخير طائفة من اشعار البارودي أو جميل بثنية . يقرأ كل ما قيل حولها ثم يرمي بها (توفيقاً) الذي ليس من شأنه ان يقول عن شيء (لا أعلم) فإذا المعركة ناشبة . واذا الاصوات ترتفع من كل صوب ..

وأخيراً هنالك ذلك الفتى الحلاق أقبل حديثاً إلى هذه(الندوة) فبدأ (دروسه) بالاصغاء . ثم ما لبث أن مسه التطور فجعل يشارك في المعارك . وجعل يرجع إلى الكتب ليتزود بما يعوزه من السلاح . ثم لم يلبث أن تكشفت نفسه عن ميل إلى نظم الشعر . فمضى يعرض على المجلس بواكيره الساذجة . فيستقبله (تقي الدين) بالانكار ، إذ يستكبر ان يكون مثل هذا الكلام المقفى الموزون لمثله ممن لم يدخل الازهر ولم يتخرج على شيخ ! ويصر على أن هذا شعر حافظ أو شوقي قد أغار عليه الحلاق ..

ويجادل توفيق عن صاحبه انتصاراً للعصامية التي يمثلها هو نفسه . ويقلب (محمد) شفتيه في ازدراء . ثم ينصح للحلاق بأن يشغل فراغ وقته . الذي يبذله لمحاولة الشعر . باعداد اداوات الحلاقة وشحذ مواسيها ! .

وينبري (مصطفى) . وهو خياط يمضي اكثر وقته في

السكوت والاستماع . ليدافع عن صديقه الحلاق في إخلاص وحمية ، مؤكداً أن الشعر الذي يعرضه هذا إنما هو له حقاً ، قد نظمه على علم منه . فليس هو من صنع حافظ ولا شوقي كما يزعم المعلم (تقي الدين) . أما بقية هؤلاء فهم من هذه الطرز المتباينة . تفاوتت عقلياتهم كل التفاوت . ولكنها اتفقت على شيء واحد هو أنها عقليات محدودة صغيرة لا تصلح إلا لمثل هذا المجلس الصغير المحدود .

ولعل اسعد اللحظات في حياة الشيخ حسن أيامئذ تلك الساعات التي كان يشرف فيها على توجيه هذه المعارك اللسانية بين جلسائه . وهو متخذ مهمة الحكم يصوب هذا . ويفند رأي ذاك . ويبذل قصارى جهده للدفاع عن المواهب الجديدة التي تتمثل — في زعمه — بالفتى الحلاق . هذا على الرغم مما يتظاهر به أحياناً من الضيق بتلك المناقشات التي كثيراً ما تصل إلى حد المهاترة .

— ٢ —

كان زواج الشيخ حسن صدمة مؤثرة في حياته بل في حياة تلك الثلة من الرفاق جميعهم . فما إن دخلت الزوجة ذلك البيت حتى خرجت منه تلك الجذوة من النشاط والحركة التي ملأته طوال عشر سنوات .

لقد قضت الاوضاع الزوجية على اولئك الرفاق أن يكفكفوا

من أزمتّهم . فينقطعوا عن غشيان ذلك المنزل الذي كان ندوتهم اليومية . فهم اليوم لا يدخلونه الا فرادى بعد أن كانوا يدخلونه مجتمعين ، ولا يسمحون لأنفسهم باجتياز عتبته إلا بعد الاستئذان والوقوف قليلاً بانتظار انفتاح الباب . الذي ما كان ليعرف الانغلاق من قبل إلا في ساعة متأخرة من الليل .

وكان لهذا التحول أثره الموجع في صدورهم . إذ تفرقت بهم السبل فلا يكادون يتلاقون إلا لماماً في اثناء الطريق . ولكنهم في الوقت نفسه كانوا مجمعين على احترام هذا التطور ، فهم يحبون (الشيخ حسناً) ويحبون لذلك أن تستقر به الحياة في عش زوجي ، يظلله جناح المرأة . وتذرّ في جوانبه أشعة الابوة .. إنهم يرغبون أن يروا لصاحبهم ذريةً صالحة تخلد وجوده في هذه الدنيا . فلا يمر بها كما يمر الطيف في خيال النائم . ولذلك تلقوا مشاورته إياهم بهذا الشأن في قبول وتشجيع . يوم دعاهم ليستشيرهم .

وما كان للشيخ حسن رغبة خاصة بامرأة معينة . ولم يكن ثمة أي مجال لعلاقة ما بينه وبين امرأة مهما يكن شأنها . بل الواقع أن ميل الشيخ حسن إلى الزواج كان مفاجأة لهم بالنسبة إلى ما عرفوه من عزوفه عن حديث الزواج . ولكنهم لو أنعموا في استقصاء الاسباب التي بعثته إلى هذا التطور يومئذ لادركوها من أقرب سبيل .. ذلك أن صاحبهم لم يكن ميت الحس ولا جماداً . ليرغب عن المرأة ، وانما كانت رغبته عنها رغبة اليائس ، الذي أيقن أنه ليس بواجد المرأة التي ترضى بان تكون

أداة خدمة مجردة للرجل . تدخل بيته لتجعل منه باختيارها سجناً لها وله الى الابد . لذلك كان ترهّبُه حتى ذلك اليوم تعبيراً عن هذا اليأس الذي كان من شأنه ان يواري عواطفه الجنسية إلى حين . فتكون أشبه بالسيل من الماء يتغلغل في أعماق الارض باحثاً عن المنفذ الذي يتيح له التدفق . فهو في حركة خفية دائمة .ولكن الارض من فوقه في همود ظاهر دائم ..

وكان من تدبير القدر العجيب أن ساق للشيخ حسن من العوامل المسعفة أخيراً ما تغلب على ارادته القوية . فاذا عواطفه تنبثق من جديد فيعدها رفاقه مفاجأة . وهو وحده يعرف انها شيء طبيعي ينتهي إلى نتيجته المنطقية المقررة .

وكان صديقه (بهاء) أحد هذه العوامل الفعّالة . ذلك أن (بهاء) هذا كان من أترابه الاقدمين . ومن أقرب رفاقه إلى نفسه . إذ هو عشيره الدائم . يلازمه أكثر وقته . فطعامهما مشترك أبداً . ومهجعهما غرفة واحدة من منزل الشيخ . فلا يفترقان إلا اثناء النهار . حين يذهب بهاء إلى عمله في صناعة البراذع مع والده الحاج . ويفرغ الشيخ حسن إلى حرفته في تعليم الاطفال .

وكان بهاء شاباً في العقد الرابع مثل صاحبه . قوي العضلات ناضج الفتوة . نشأ على الروح الديني في كنف أبيه وعلى نهجه . ولكنه . إلى جانب ذلك . شديد اللهفة إلى لذائذ الدنيا . يرى أنفس ما في الحياة وجه الطبيعة الكاسية بالماء والخضرة .

ووجه المرأة الذي لا يقع نظره عليه حتى يثير في أعصابه مثل الكهرباء – كما كان يقول – !

ومثل الشيخ حسن كان بهاء من حيث أنه لم يعلق امرأة بعينها ، ومرد ذلك إلى الفقر أولاً فهو لا يملك من المال ما يشجعه على طلب الزواج . ثم إلى تربيته الدينية ثانياً ؛ فهو على الرغم من غرامه الشديد برؤية النساء ما كان ليثبت عينيه في وجه امرأة حذراً من الإثم .. وطالما عرف رفاقه منه ذلك فيشجعونه على الزواج ؛ فلا يلبث ان يردد عليهم قول القرآن الكريم : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله .. »

وبديهي أن يكون للتلازم بين الشيخ وأثيره بهاء يد لا تنكر في تأجج تلك العواطف الجنسية الحبيسة في نفس الشيخ ؛ فقد كان كل منهما امين سر لرفيقه ؛ يتناجيان كلما خلوا برغباتهما وتمنياتهما ..

ثم جاء عمل المرأة نفسها أيضاً ؛ فقضي على البقية الباقية من تماسك الشيخ . ذلك أن امرأة من نزلاء طرطوس قد تتلمذت عليه ليقرئها القرآن ؛ وقد رغبت في ذلك لتحترف مهنة تعليم القرآن مثله للاطفال ؛ ولتتخذ من هذه الحرفة وسيلة تصرفها عن الشعور بهذا الفراغ الذي يسيطر على بيتها ، بعد أن يئست من الحصول على الولد .

ولم يكن للشيخ مندوحة عن استجابة طلب المرأة أمام إلحاح زوجها فأخذ في تعليمها ؛ وأخذت هي في التردد على منزله أثناء

عمله في التعليم ، تجلس مقابله إلى المنضدة . ثم تعاونه في تعليم صغاره بقية الوقت .

وكان طبيعياً أن يسقط الحجاب بين الشيخ وتلميذته ، فيضطر للنظر إلى وجهها . ويصغي إلى ترتيلها للقرآن . فتتلاقى في خياله أحلامه الكمينة مع الواقع الملموس .. أحلامه عن المرأة مع المرأة نفسها .. انه عالم جديد . لا ريب في ذلك . من حقه أن يحفر عميقاً في قلب الشيخ وفي خياله ! ..

لم تعد المرأة فقط تلك الصورة السحرية المتوهمة ، التي يمكن أن يسلط عليها شعاع الارادة فتتلاشى في ضوئه، بل إنها اليوم حقيقة بارزة تقع عليها عين الشيخ وتلمسها يده لو شاء. فلا مجال لتجاهلها أو تناسيها .. انها كائن عجيب من شأنه ان يغير طبائع الاشياء . فالغرفة نفسها أصبحت في عين الشيخ شيئاً آخر غير الذي عهده من قبل . والهواء الذي حدثه عن تركيبه (المعلم توفيق) لم يعد كما عرفه بالامس مزيجاً من الاوكسجين والأزوت والارغون و ... ان فيه اليوم لريحاً . وان له لطعماً ، كأنهما ضرب من المسكرات ! .

ولكن ما اقبح هذه الغرفة وذلك الهواء عند قدوم المساء ! ان الشيخ ليكاد يضيق بنفسه بمجرد سماعه صوت المؤذن لصلاة العصر . لأنه ايذان بانصراف المرأة التي سيطرت على كيانه كله .. !

ولم يكن صاحبنا نفسه ليدرك تحديداً لهذا السر في تأثير

تلميذته . إنه بلا شك شيء غير الجمال الذي يقوم على تناسق الاعضاء وانسجام القسمات . فتلميذته الكبيرة لم تكن من اللواتي يمتزن بالجمال الخارق . وان كانت لا تزال محتفظة بالكثير من نضارة الشباب .. ولكن السر كما يظهر إنما هو في مجموع المرأة .. إنه المرأة كلها وكفى .. !

ومنذ هاتيك الاثناء بدأ التحول في حياة الشيخ . فاذا هو شديد الملل والتبرم بهذه الاجتماعات التي يسرع اليها معارفه في كل ليلة ، وبات أضيق صدراً بهذه المناقشات التافهة التي يثيرها المتجادلون لديه ! .

ولكن هذا كله قد زاد إلى الاضعاف عندما فوجيء صاحبنا بانقطاع الجارة عن غشيان منزله . لتفرغ إلى اعداد كتّابها هي ، وإلى الدعاية له في بيوت المدينة .. فكان لا مندوحة له عن مكاشفة بعض المقربين من رفقته بحاجته إلى الزوج ، وبتكليفهم السعي لايجاد الزوج المناسبة له .

وكان الشيخ منطقياً جداً في هذا الأمر ، فهو لم يفرض على رفاقه هؤلاء الحصول على امرأة بعينها . وإنما ترك لهم ان يتصرفوا بالأمر في حدود الامكان .. إذ لا ينسى أبداً ان مثله لن يكون شيئاً مرغوباً فيه عند النساء ، فهو مضطر لأن يتساهل في النوع والشكل إلى أقصى حد ، بشرط واحد فقط هو ان تكون امرأة فقيرة وفي سن الشباب ، وذات صحة جيدة . بريئة من العاهات التي تحول دون واجبها كربّه بيت وكأم . وهو

لم يشترط الفقر إلا لأنه بنظره الوسيلة الوحيدة لاقناع صاحبته بالتزوج من مُقْعَد ! .

وأفلح الرفاق يومئذ . فكانت المرأة التي عقدوا له عليها في الصفات المطلوبة نفسها تقريباً .

وأعد صاحبنا بيته لاستقبال العروس بأفضل ما أمكنه ، وأعانه في ذلك بعض أصدقائه بهداياهم . فكان لديه من كل ما يحتاج إليه بيت كبيته .

ولم يقصر في اتحاف العروس بما استطاع من الحلى والثياب الحريرية . ثم كان الاحتفال شائقاً سواء عند العروس او العريس . فقد وجد الشيخ من عناية اصدقائه وعائلاتهم . وأمهات تلاميذه . ما جعل زفاف العروس غاية ما تأمله امرأة من اوساط الناس فضلاً عن الفقيرات .

ولكن ... سرعان ما خاب فأل الشيخ ! ..

لقد كان اليوم الاول من حياته الجديدة عنواناً لكتاب مضطرب الفصول . فيه من كل شيء الا السعادة التي كان يتخيلها !

لقد أبت العروس ان تدنو من فراشه . ثم أبت ان تملأ نظرها من وجهه . بل لقد كانت تنظر اليه كما ينظر الطفل إلى الشَبح الذي طالما خوّف به في الظلمات ! .

— ٣ —

وتقلبت الايام تترى على وضع مشوش ضاعت فيه جهود الشيخ كلها عبثاً ، وتلاشت كل تدابيره العقلية سدى .. حتى ايقن بعجزه عن كل اصلاح بينه وبين زوجته .. ولأول مرة في حياته شعر بتحطم كبريائه . وبأنه ليس شيئاً من مخلوقات هذه الدنيا سوى أنه « العاجز » .. العاجز وكفى ..

ولم يكتم محنته عن رفاقه القدامى ، فدعا ببعضهم واستعانهم على شأنه . ولكن جهودهم ذهبت كذلك عبثاً .. وتقدم بهاء يخاطب الزوجة من وراء الباب . فجعل يحدثها عن اخلاق صديقه ، ويطري فضائله ، ثم يدعوها للصبر عليه احتساباً في الله . فلعل الله ان يسعدها بذرية منه صالحة ...

وما كانت محنة الشيخ بجموح زوجته اشد وقعاً في قلبه من كلام صديقه ، اذ لم يجد فيه سوى كشف لنواح جديدة او قديمة من معايبه الجسدية ..

وفي الحقيقة لقد كان لموعظة بهاء اثر فعال في نفس الزوجة ، إذ لم تلبث ان بادرت إلى التحول عن خطتها السابقة ، فاذا هي تحاسن زوجها . واذا هي تشدد من صلتها به وببيته ، كأنما احست لأول مرة انها في جوها الذي خلقت له .

والمرأة سر مغلق ولكنها أشبه شيء بالقفل الذي ضاع مفتاحه . فاذا ما عثر عاثر على هذا المفتاح فقد قبض على زمام هذا السر .

وكذلك كانت موعظة بهاء مفتاح هذا القفل الضائع .
وصار بهاء منذ ذلك اليوم ملاذ الزوجة ، تتوسطه لتقويم كل ما يطرأ على حياتها وحياة زوجها من اعوجاج ..

وسرعان ما انقلب الوضع فبعد أن كانت الزوجة هي الناشزة النفور اذا الزوج يقوم بهذا الدور كله ، فيقابل امرأته بأشد مما كانت تقابله به .. لقد أصبح لا يطيق أي حركة منها ، بل لقد بات يجد لكل كلمة من فيها تأويلاً لا ينتهي إلى الاطمئنان.. حتى انه لم يتمالك في لحظة من لحظات الغضب أن يرميها بسوء العلاقة مع بهاء نفسه ! .

وانتهى الخبر إلى بهاء فانقطع عن بيت صاحبه ، بل انقطع حتى عن الطريق الذي يشرف عليه ذلك البيت .

وغرقت الزوجة في بحران من الحزن المتصل ، تندب حظها وتبكي سمعتها التي حطمتها شكوك الزوج ... وكان من المتوقع أن يثوب الشيخ إلى رشده ، فيستعيد الثقة بذلك الصديق ، الذي خبر طهارته طوال عشر سنوات ، فيبعث بطلبه ليعتذر إليه عما فرط منه في لحظة الغضب .. ولكن الأمر جاء على العكس فقد تراءى له أن حزن زوجته وانكسارها وبكاءها لم تكن إلا بعامل الأسف على فراق بهاء ... وقلما أغفل تأنيبها على ذلك ، وطالما اسمعها الكلمات القارسة التي لم يعتدها لسانه من قبل ، مما عاد بحياتهما مرة ثانية إلى ذلك الجحيم الذي أوشك أن ينطفىء .

وكان مستحيلاً أن يزايل الشك نفس الشيخ بصاحبه القديم ، ما دام قد اقتنع ان زوجته لم تجفُه اولاً إلا لنفورها من هاتين الساقين الميتتين ، ثم لم ترض عنه إلا بوساطة بهاء ، وهو هو لم يزل يجر ساقيه نفسهما ، فكيف يمكن ان يزول عنها ذلك النفور منهما بهذه السرعة !! ثم ليس احد ادرى ببهاء منه : أليس هو عاشق الطبيعة ، ومتيّم المرأة المحروم ! . فما الذي يحول بين انصراف هذه المرأة إليه وانصرافه إليها ، وقد فاز بما لم يفز هو به من قوة العضلات وسلامة الأعضاء !! .

وليس هو بحاجة للمزيد من الدلائل ، فالمرأة هي المرأة ، والرجل هو الرجل ، ولن يكون للدين او الأخلاق أي عمل متى يتوفر بين المرأة والرجل عامل الفتوة والرغبة ! .

وعاود الشيخ حنينه إلى الماضي ، إلى تلك العشايا الزخرات المتع واللهو والجدل والنقاش . وخيل اليه أنه لن يجد الراحة إلا حين يستقبل تلك العشايا من جديد ، فجعل يرسل الرسائل إلى اصحابه الاقدمين ، يذكرهم تلك الليالي ويستحثهم على معاودتها ، فهو لا يزال ذلك الصديق الوفي الحنّان اليهم ، وبيته لم يبرح ، كما كان بالامس . في مكنته ان يتسع لصخب الرفاق وضجيجهم وسهراتهم .

ولكن الجواب لم يكن شافياً لان العشايا الذاهبات لم تعد ، والرفاق القدامى فرقتهم الحياة ، فكما ألفوا بالامس ذلك البيت حتى آلمهم ان يتركوه ، كذلك ألف كل منهم مكاناً آخر

ليس من اليسير عليه ان يتركه .

والواقع ان شكوك الشيخ برفيقه المفضل بهاء قد أثار في نفس كل من هؤلاء الرفقة روح الحذر من التعرض لمثلها ، فكانت هي الحد الفاصل بين ذلك الماضي المحبوب وهذا الحاضر المكروب !

— ٤ —

كان السحَر لطيفاً مغرياً يبعث نسماته الرقيقة مختالة تمر على أوراق الخروبة القديمة في تُؤدة ورفق ، فينبعث منها جَرْس ناعم كأنه الهمس .على حين تتصاعد اصوات الديَكة متجاوبة من اطراف القرية النائمة واوساطها . فتتلاقى مع هذا الحفيف المهموس لتؤلف لحناً مبهما ذا لونين ، يودع بأحدهما فلول الليل ، ويستقبل بثانيهما طلائع النهار ..

ولو مرّ أحد حراس القرية تلك اللحظة . بهذه المصطبة الساذجة البيضاء . المتربعة تحت الخروبة على مدخل المسجد ، لتوقف امام تلك الكتلة البيضاء الجاثمة على مقربة من جذع الشجرة . محاولاً ان يتعرف اي شيء هي .. ولو هو فعل ذلك لسرّه ان يقضي بقية نوبته في خلوة مع ذلك الشيخ الغريب المقعد الذي هبط قريتهم هذه منذ عامين . فكان ضيف هذا المسجد يُعنى به . ولا يحول موت ساقيه دون مساعدة خدّمه في كنسه وتنظيفه كأتم ما تكون المساعدة .

وما كان الشيخ (غريب الضائع) هذا ليعرف بالضبط كم من الساعات مرّ على جلسته تلك في ظل الشجرة ، بل ما كان يهمه ان يحس حركة الزمن من حوله ، لانه كان مشغولاً عن كل ما يحيط به في هذه الاخيلة التي غشيته منذ صلاة العشاء فلم تدع له سبيلاً إلى النوم قط . وكأنما جرته جراً إلى هذا المكان ليفرغ إلى تلمس ذكريات طالما ودّ لو ينفضها من قلبه فتأبى إلا أن تتشبث به ، وتأبى إلا ان تلاحقه انىَّ ذهب من هذه الجزيرة الواسعة ، ومهما يكن من مرارة هذه الذكريات فما كان ليتمنى زوالها نهائياً من خياله . وان بدا عليه التململ من مواجهتها كلما عرضت له . ذلك لأنه كان يحس تعطشاً خفياً إلى الارتواء منها . حين يخلو إلى نفسه ، ليتاح له ان يتحرر ولو قليلاً من هذا الوضع الشاذ الذي فرضه على حياته خلال عشر سنوات ، منذ ان مسّ جسمه هذه الارض الغريبة ، ولذلك كان احب الساعات اليه تلك التي يطلق فيها لعينيه سبيل الدموع في مثل هذه الجلسة البعيدة عن رقابة البشر .

لقد استيقظت في صدره اطياف الماضي البعيد فاستسلم اليها يستحضر من خلالها سلسلة حياته الضائعة ، ثم ليقف منها على الحلقات الاخيرة . ايام حزم امره على فراق طرطوس فراقاً لالقاء بعده . فقطع صلته الزوجية بتلك المرأة ، وباع ما فاض عن مهرها من أثاث وبناء ثم ركب البحر إلى قبرص .

ولذّ له في هذه اللحظة الوجدانية ان يتذكر ما لمسه ساعة الوداع من مشاعر رفاقه الاقدمين . حين احاطوا به على الشاطىء

يكفكفون من عبراتهم . ويستحلفونه بالله ان يعدل عن هذه الرحلة . فيمسك دموعه في قلبه . ويتظاهر بالاصرار القاطع على تحقيق ما اعتزمه . وهو يعلم لو أنه اصاخ إلى خفي الاصوات المنبعثة من أعماقه لكان احرى أن يتشبث بهم ليمنعوه من الوصول إلى السفينة .. ولكنه مع ذلك لا يستطيع ان ينسى استنكاف ذلك القسم الآخرمن الرفاق عن تشييعه . إذ أبوا الا ان يشعروه باستنكارهم لما فعل من فراق زوجته وسوء تهمته ! .

وما ان يذكر بهاء وتلك المرأة حتى يتلاشى من صدره الكثير من روعة ذلك الماضي ، ويجد المسوغ المعقول لهذا التشرد ، الذي قضى به على نفسه . بعد تلك الطعنة النجلاء التي تلقاها من اقرب الخلق اليه ! .

وإذن فلقد كان الفراق لزوجته ولبلده ولرفاقه هو الوسيلة الوحيدة الفضلى لمحو اثر الخيانة . وعليه فلا مسوغ لهذا الالم يعصف به كلما تجاذبته الذكرى .

على انه كذلك لا يستطيع ان يتناسى تلك اليمين الغموس التي ارسلها بهاء في اذنه وهو على ظهر الحمّال إلى السفينة : « اقسم لك بالله انني بريء من كل اوهامك .. وان زوجتك لبريئة من كل ما رميتها به .. »

أفيكون بهاء بريئاً حقاً ؟ .. واذا صدق في يمينه فاي ظلم اكون قد اقترفته مع تلك المرأة ؟ ! ..

لقد كان الجواب على هذا التساؤل هو الحد الفاصل بين

الموت والحياة في نظر الشيخ حسن او الشيخ غريب الضائع — كما سمى نفسه في قبرص —

ولكن هذا الجواب لا يتأتى من نفسه هو . ولا بد ان يتلقاه من طرطوس .

وتذكر هنا تلك الكلمة التي اسر بها إلى المرأة ساعة طلاقها ، والتي همسها في سمع بهاء ساعة وداعه : « لقد فعلت ما فعلت لأدع لكما فرصة الزواج .. وسأكون سعيداً عندما اسمع نبأ ذلك . »

ولا شك ان كل شيء يتوقف على هذه النتيجة ، ولن يكون لبهاء مندوحة عن الاقتران بصاحبته . ولا لهذه بد من الاقتران به ما دام في نفسيهما رغبة في ذلك . وما دام قد خلا الجو لهذه الرغبة . وتوفر للمرأة من مهرها وما تركه لها من الزيادة عليه ما يؤمن لهما زواجاً هنيئاً ..

ولكن الشيء الذي يشغل باله اكثر من كل شيء هو جواب الكتاب الذي اودعه البريد قبل عشرين يوماً لاسم الرفيق « مصطفى » . ذلك الكتاب الذي اضطر إلى تسطيره في مثل هذه الفترة المذهلة ، بعد أن كان قد قطع على نفسه الا يكتب إلى احد .

لقد كان على ثقة من ان هذا الرفيق هو أصلح الناس للرد على رسالته . لما عرف به من البر باخوانه ، فليس مصطفى هذا ممن تنسيهم الايام اصدقاءهم ، وليس هو ممن يصرفهم الكسل

عن واجب الوفاء .. ثم ان الشيخ قد نوه في رسالته هذه بالامر الذي يود استطلاعه . فلا بد لذلك الرفيق من الكتابة عنه في ثنايا جوابه .. وإذن فلا مندوحة من انتظار ذلك الجواب . الذي لم يتأخر طويلاً بعد . وعلى كل فسيردف كتابه الاول برسالة اخرى استعجالاً له ..

وتلقى سمع الشيخ (غريب) صوت المؤذن ينساب مع نسمات الفجر الصادق بكلمة (حي على الصلاة) ..) فرجع إلى نفسه ومسح دموعه عن عينيه وعن لحيته المسترسلة بطرف جلبابه الأبيض المخطط . ثم انطلق على يديه وأصابع قدميه إلى المسجد .

وكانت الشمس قد ارتفعت إلى قمة الضحى عندما كان صاحبنا يحمل رسالته ليودعها صندوق البريد القريب . ولكنه ما لبث أن أشرف على باب المركز حتى وجد نفسه بغير حاجة إلى تسليم الرسالة . ذلك لان الموزع قد فاجأه برسالة مضمونة ما عتم أن لمح عليها خاتم طرطوس . فوقّع على الدفتر ورجع من حيث أتى . وبعد هنيهة كان يُمِر بصره على هذه الأسطر :

صديقي الحبيب ورفيقي الغريب ...

ما أظنك إلا مستغرباً أن تتلقى جواب رسالتك بعد عشرين يوماً من وصولها . ولعلك قد أسأت الظن لذلك في هذه البقية التي فارقتها من رفاقك الأقربين في طرطوس . فخيل إليك أنهم قد نسوك أو تناسوا تلك الهنيهات الماتعات التي ربط

بها الشباب بينك وبينهم ..

وما ألومك على ذلك فمن حقك على إخوانك القدامى أن يردوا على تحيتك في غير إمهال ولا تردد ، ومن حقك عليهم أن يتفقدوك بكتبهم بادئين لو قد أظهرت نفسك لهم خلال هذه العشر السنوات ودللتهم على موطن وجودك من أرض الله ..

ولكن يا صديقي .. ليت الأمر يقف عند حدود الاهمال . فانه على قبحه ليسير بالقياس إلى السبب الآخر الذي حال بيننا وبين الاجابة على رسالتك حتى اليوم .. وكم كنت أود ألا أكتب إليك في بيان هذا السبب لو كان إلى كتمانه من سبيل . ولكن ما الحيلة وقد شاء القدر أن أكون نذير السوء إليك . وأنت في أشد الحاجة إلى البشرى . لان الذي تريد أن يجيب على رسالتك قد اختطفه الموت يوم وصول رسالتك ، فما كان بد من أن يقوم عنه أحد الرفاق الذين لم يرد واحد منهم أن يحمل إليك هذا الخبر الفاجع .

أجل يا صديقي . لقد مات مصطفى السيد .. مات بعد عذاب أليم استمر يدافعه ما يقارب الاربع السنوات. فكان أشبه بالقمر يعتوره الكسوف فلا يزال ينتقص من أطرافه حتى يغيب عن الأعين .. ولعلك تذكر ما كنت تلاحظه عليه من الفتور آخر عهدك به . حيث كنت وكنا نلومه على ذلك فيكاد يتعذر عليه الرد على لومنا ..

لقد كان ذلك من حيث لا يدري بداءة التهاب السحايا الذي

لم يُجدِ فيه بعد ذلك أي علاج ، فشرع ينحل وينحل حتى لم يعد يستطيع التماسك في فراشه . وكان ان فجعنا به فواريناه التراب . بعد أن واراه المرض عنا . فلم نكن نشهده إلا لماماً طوال هذه السنوات .

هذا حديث الرفيق الذي آثرته بكتابك ، فكان من عمل القدر أن أنوب عنه في الرد لأضيف إلى آلامك وأوهامك ، التي تشير إليها . عبئاً آخر ما احسبك قادراً على التخفف منه ، فكيف إذا أنا مضيت في الحديث عما تريد التحدث عنه من أنباء رفاقك الآخرين ! ..

إن الحديث لذو شجون يا صديقي .. وما أدري اي شيء يضغط على قلمي لأفضي إليك بها كلها .. ولكني أعرف شيئاً واحداً هو انني احس روحاً من العزاء عندما أجدني مستسلماً إلى هذه الكتابة . ولكنه عزاء غير عزاء السلوى ، فما كان للقلب الحساس أن يسلو اترابه وقد غيبهم الثرى ، وبقي بعدهم ينتظر نهايته المحتومة .

لقد سألت في رسالتك عن كل شيء .. عن الرفاق . وعن الشوارع وعن الهواء والماء ، ولم تنسَ حتى شاطىء العيون الذي كنت تركب إليه معنا في اماسي الصيف ، لنتناول طعامنا المشترك بجانب ينابيعه . بل لم تنس حتى شجرة الأزدرخت العجوز التي كانت تطالعك من مكانها في الساحة .. كلما فتحت نافذتك لاستقبال الصباح .

أما هذه الاشياء يا صديقي فقد خلعت حلتها السحرية الجميلة التي كنا نفرغ عليها من انفسنا المنتشية بمرح الحياة . وعادت كما يراها الناس الآخرون اشياء لا تستحق التفاتة ولا عناية . واما الرفاق فقد ذهب خيرهم ولم يبق منهم إلا هذا الذي يكتب إليك الآن . وبقية مثله ممن لم يكونوا شيئاً فعالاً في نسج جمال الماضي ..

لقد حاولنا إثر مفارقتك طرطوس أن نستدرك ما فقدناه من روح التقارب . فتداعينا إلى منزل المعلم (تقي الدين) وكان المأمول أن يعود لنا الماضي الحبيب الذي وأدناه يوم زواجك . واستطعنا أن نستأنف بعض تلك الحياة حيناً من الدهر . ولكن شذوذ المعلم الذي ما إخالك نسيته ما لبث أن نغّص علينا هذه المتعة ، إذ أبى إلا أن يستكثر من جماعة الموظفين إشباعاً لرغبته في التباهي . وإحياء لسالف أيامه في الوظيفة . فكان مستحيلاً أن تمتزج هذه الأرواح المتباينة . وكان متعذراً علينا أن نخضع عواطفنا لهذا الجو من التكلف الثقيل . الذي يفرضه وجود هذا العنصر (الممتاز) مضافاً إلى غرائب الطباع التي تعرفها في المعلم القديم ، فانتهى الأمر إلى انسحابنا واحداً تلو الآخر ، ثم إلى تشتتنا النهائي بحيث اصبح الواحد منا لا يكاد يرى الآخر إلا اتفاقاً . وهكذا آثرنا الحرية الفردية على تلك القيود . وما وراء هاتيك القيود من مغريات الطعام والأحاديث و المؤامرات المضحكة . التي اعتاد القوم أن يحوكوها كل يوم لصاحب المنزل .. فتنتهي إلى إغضابه حتى يغلق بيته في وجوه الجميع الايام الطويلة . ثم لا يلبث أن تتغلب عليه رغبته في استئناف هذه الحياة فاذا هو يدفع

هذا وذاك منهم للعودة إلى الماضي .

وحتى صاحبنا هذا لم تدعه لنا الاقدار . فقد نزل به الموت قبل نصف سنة . وعادت أرملته العقيم المسكينة إلى مسقط رأسها في ارواد . وها هم أولاء رفاق الامس قد نسوا كل آثاره ، فلا تكاد تجد من يذكره بينهم .

وقد رأيتك توجه عناية خاصة لاخبار صاحبيك (عاشق الغمقة) والحلاق الشاعر .. ويحزنني أن اضم اسم الاول إلى قائمة الموتى من أحبائنا .

أجل يا صديقي لقد فقد ذلك النهر — الغمقة — عاشقه الوفي قبل عام . فلم يعد يشهد على ضفته تلك الحركة اليومية التي كان يستقبلها كل ظهيرة من أقدام الشيخ عبد الحق وأسرته ، وتلك المناجيات التي ألف سماعها من ذلك اللسان الظريف ، حين يقبل مع اطفاله وزوجته على التهام طعامهم المتواضع ، وهو يمجد الله الذي اتاح مثل هذه السعادة للفقراء من عباده ، الذين قد يحرمون كل شيء إلا الاستمتاع بهذا الجمال المبذول للعاشقين في أكناف الطبيعة ، ولعلك تتذكر مقالته الخالدة حين كنا نستغرب منه ان يجد متسعاً في نفسه للاستمتاع بالطبيعة ، وهو الذي يكاد لا يجد قوته اليومي إلا بمعجزة إلهية ، فيفلسف لنا هذه الحياة بقوله : « ان من الكفران لنعمة الله أن يتناول الفقير خبزته بين الجدران وهو قادر على أن يمزج بها جمال الطبيعة من هدير البحر وخرير المياه ورائحة الأرض » :

ولقد ، والله ، حقق فلسفته هذه حتى آخر لحظة من حياته الجميلة . إذ فــاجأه الاجل المحتوم اثر آخر عودة له مع اسرته من ضفة الغمقة .

أما شاعرك الحلاق فما ادري ما إذا كنت تطلع على الصحف العربية لترى آثاره التي طالما تنبأت بها .

لقد بلغت شاعريته المدى الذي يلفت اليه الانظار ، وأصبح واحداً من هؤلاء الذين تُقرأ آثارهم في إعجاب ، فحقق بذلك الرأي الذي كنت تراه فيه . وجميل أن تعلم أنه يذكر فضلك عليه وفضل رفيقنا مصطفى الراحل . إذ يعد نفسه تلميذ تلك الندوة ، وصنيعة ذلك التشجيع الذي طالما غمرتماه به . حتى اصبح بفضل هذه المواهب التي أثرتماها في نفسه مدرّساً للأدب والعربية في احدى الثانويات .

ولكن لا اكتمك أنه يود من كل قلبه لو بقي حلاقاً محروماً من كل مشاعر الأديب ، حيث يتاح له ان يفرغ بكل جهده لتدارك حاجاته العائلية التي قد تتيسر لكل عامل في هذه البلاد إلا حملةَ الأقلام .. ولا تعجب من ذلك فالأدب إنما هو حس ووجدان أكثر مما هو كلام وأوزان ، وفرق بين مخلوق قانع بما كتب له من مصير في هذه الدنيا ، وأديب لا يرى في الحياة كلها إلا طريقاً لما يجب ان يكون من العوالم التي يصورها خياله ومشاعره . وماذا تتوقع من الاستقرار لعصامي لا يملك شهادة تخوله الدخول إلى الملكوت السعيد الذي يدعى (الملاك) في

معجم الوظيفة ! . فهو يتناول مرتبه ما دام في عمل التدريس ، فاذا جاء الصيف انقطع رزقه من الدنيا . فعاش مع اسرته الكبيرة كالتائه في الصحراء لا يدري من أين تطل عليه الواحة ... وهيهات .. فما هو بقادر على الرجوع إلى مقصه وموساه . ولا هو بمستطيع اختراق هذه السدود التي يقيمها في وجوه أمثاله نظام الدولة التي قد تقدر كل شيء إلا الكفاءات المجردة عن الشهادات .. !

فهل تستنكر منه بعد ذلك ان يقرع سن الندم لعصيانه نصيحة ذلك الدباغ الذي كان يستقبل كل قصيدة منه بقوله : خير لك ان تستغل فراغ وقتك في شحذ مواسيك واعداد آلاتك ، بدلاً من اضاعتها في محاولة الشعر .. » !

وفي اعتقادي إن صاحبنا الشاعر هذا لأحق بأن نحسبه في عداد الموتى من أصحابنا ، فليست حياته إلا ضرباً من الموت الذي لا خلاص منه .

وقد حان لي ان أحدثك عن بهاء .. بعد أن أخرت الكلام عنه كما أخرته أنت في رسالتك .. لأجعل منه خاتمة هذه المآسي .. ولعمري إن حديث بهاء لقصة وحدها ما أحسبك بقادر على تصور فصولها مهما بلغتَ من البراعة ..

لقد كنت يا صديقي لبقاً جداً في الاشارة إلى هذا الصديق ، فأنت تتساءل عن مصيره (السعيد) في أسلوب كأنه بعيد عن التعمد . ولكنك تعلم أن مثل هذه الاشارة لن يفوت مغزاها

الرجل الذي كنت تتوقع أن يرد على رسالتك .. وقد كان حرياً بأن يجيبك على ما تريد بخير مما افعل انا . ففي اعتقادي ان قصة بهاء من قصص القدر المحكمة التي لا يستطيع عرضها إلا كاتب أُلهم القدرة على حل رموز القدر .. وأين أنا من ذلك !

لقد مات بهاء يا صديقي .. وقد مضى على موته حتى اليوم سنة كاملة . ولكنه لم يمت كما يموت الناس . وإنما كان موته خاتمة فنية محكمة لمأساة كان لك أنت فيها دور بطل .

هذه مقدمة القصة وقد بقي عليك أن تساير فصولها إلى النهاية .

لم يكن في وسع بهاء ان يستقر في طرطوس بعد أن تركتها انت بسببه . لذلك كان أول ما فكر فيه هو ان يهجر طرطوس كما هجرتها . واستطاع ان يقنع أباه بمساعدته على الهجرة إلى (المارتينك) اسوة بهؤلاء الفتيان الذين يسعون إلى الثروة ، فيذهبون صفر الأيدي ثم لا يلبثون أن يعودوا بالمجد والذهب : وهكذا رهن الحاج بيته ليقدم لولده نفقات السفر . ولا أزال كرفاقي أذكر آخر ليلة قضيناها مع بهاء، إذ طلب منا ان نرافقه إلى (وادي العيون) ليزود عينيه لآخر مرة بمباهج هذا الجبل الذي أحبه. لقد أحيى لنا أبناء الوادي يومئذ ليلة ساهرة ملأتها انغام القصب والدبكة . فكنا نلاحظ بهاء يخرج بين الفينة والفينة إلى فضاء البيت ، لينظر إلى نجوم السماء ، وليطل على هذه الاضواء الصغيرة المرسلة من نوافذ البيوت ، المبعثرة على السفح

كأنها نجوم أخرى انتثرت على الارض ... ثم يرسل تنهدة طويلة وهو يتساءل : « واحسرتاه ! هل اشهد مثل هذه الليلة مرة أخرى ؟ ! »

وكأن نفحة من الالهام كانت تمر على قلبه في خلال هذه اللحظات ، فتكشف لعينيه استار الغيوب ليرى مصيره المحجوب :

وسافر بَهاء بعد ذلك .. ولبث في مهجره بضع سنين لم يقطع فيها أخباره عنا كما فعلت ، ثم فوجئنا بعد ذلك بعودته ، وكانت عودة سارةً في الظاهر ، إذ ما لبث ان استرد بيت أبيه ودفع إلى والده بقية ما لديه من المال الذي استطاع الحصول عليه..

ولكنه وحده كان يدرك ما وراء هذه العودة ، ثم ما لبث ذلك السر طويلاً حتى ظهر لأبيه ورفاقه .. فقد عاد الينا بَهاء مسلولاً من المهجر . وهو لم يعد الا بعد ان أكد له الاطباء أنه ميت لا محالة ، وقد ينفعه أن ينتقل إلى بلاده اذ يؤثر مناخها المعتدل في جرثومة السل ، فتتأخر الكارثة . ولكن إلى أجل ... ولذلك آثر أن يلقى نهايته على مقربة من رفاقه وأبيه ، وأن يكون مقره الأخير في حضن والدته التي سبقته قبل عشرين سنة.

ولن أطيل عليك .. فقد ذهب المال الذي جاء به في عيادات الأطباء والمصاحِّ. فكان علينا بعد ذلك أن نُسهم في إمداده بما يسعنا ، حتى انهارت جهود الطب على قلة ما لقيه من الجهود ، وأعيد بَهاء إلى طرطوس مرة أخرى ليقضي فيها أيامه الباقيات !

وما أَنسَ ساعة دخلت عليه في ليلته الأخيرة ، وقد كنت رأيت رؤيا دلتني على موته فعجلت لوداعه .. فما إن وقع نظري عليه حتى أحسست الجفاف في فمي وكاد لساني يجمد في حلقي .. لقد رأيت هيكلا عظمياً ، عليه غلاف من الجلد الباهت ، وقد برزت عيناه بشكل عجيب ، وبدت وجنتاه في نتوء مريب ، وكان على مقربة منه والده الشيخ الفاني يصلي في المحراب ، فضممت يد بَهاء بين يديَّ ، وتظاهرت بالبشر لمنظره ، ولكن بهاء كان أوعى من أن يجوز عليه تظاهري ، فقال : « لقد قرب الفرج يا صديقي ... وأحس برحمة الله تحيط بي من كل جانب » .

وإزاء هذا الايمان القوي لم أجد ما يمنعني من مكاشفته بما في نفسي فقلت : « وهل أنت خائف من الموت يا بَهاء ؟ .. » ولأول مرة رأيت مثل هذه الابتسامة العجيبة طغت على وجهه المعروق ، ثم سمعت منه صوتاً خافتاً كأنه يتصاعد من قبر : « معاذ الله ! .. بل هو السرور .. سرور الغائب عندما يعود إلى وطنه .. إنه يا صديقي لقاء الحبيب الأعظم .. لقاء الله الذي طالما تشوقت إلى لقائه .. »

قلت : « ولقاء عبد الحق وتقي الدين .. ومن يدري فقد يكون لقاء حسن أيضاً .. » !

وما أذكر ما إذا كنت لمحت دمعة في عينيه ، ولكني سمعته يقول : أجل يا صديقي ! إن هذا ما أرجوه .. ألم يقل رسول

الله : يُحشر المرء مع من أحب .. » وأرسل زفرة طويلة ثم قال : « لهفي على حسن ! أو تظنه قد سبقنا ؟ ! » والتفت إلى والده يسأله الدعاء بتسهيل موته . ثم اشار إليّ بالتقرب منه وهناك أسرّ إلي بهذه الكلمات : « لا يحزنني في هذه الساعة إلا شيئان : أن أذهب من هذه الدنيا دون أن أتزوج .. وأن يموت حسن دون أن يوقن أنني بريء من كل ما اتهمني به .. مسكينة تلك المرأة لقد فقدتْ سمعتها بسببي .. »

فقلت : أما حسن فسينتهي إلى اليقين بطهارتك عندما يعلم أنك تركت الدنيا دون ان تفكر بالزواج من مطلقته ، هذا إذا كان لا يزال في قيد الحياة . وأما المرأة فلم تفقد شيئاً اذ عوضها الله رجلاً صالحاً من العمال أولدها ذرية حسنة ، وهي الآن تعيش مع زوجها وأولادها في اللاذقية . ثم ان الناس يعلمون أن شكوك حسن لم تكن إلا وهماً من الخيال الجامح .. » .

فرفع رأسه إلى السماء وهو يقول : الحمد لله .. هذا من فضل ربي . »

***

وصدقت رؤياي يا صديقي ومات بهاء في تلك الليلة نفسها ، وها أنذا أنقل اليك في أمانة حديثه وحديث موته . لتعلم ان الرجل لم يخنك في الغيب . وانه كان من الصالحين .

وأخيراً .. ما أدري فلعلي أكون قد دفعتك إلى عالم جديد من الألم بما كشفت لك من حق كان خيراً لك ألاّ تعلمه ، وان تظل على شكوكك الماضيات . لتستروح منها أنفاس

العزاء المسوّغ لما حكمت به على نفسك وعلى رفقتك .

ولكني على كل حال أرجو أن يكون في كتابي هذا اليك ما يثير في قلبك حنيناً إلى الماضي . فيدفعك إلى العودة للبلد الذي انبتك . وللعش الذي حضنك ، ومع انك لن تجد لدينا الجو الذي يسعد قلبك بعد اليوم ، فإن لمواطن الذكريات قدسية من حقها ان تُطلب لنفسها ولما فيها من رَوْح الماضي ..

والسلام عليك من الرفيق الذي يترقب أنباءك ويتمنى لقاءك ، ورحمة الله وبركاته . (رفيق)

. . .

قرأ الشيخ غريب هذه الرسالة اكثر من مرة . وفي كل مرة كان يحس دافعاً جديداً إلى مراجعتها. ولو أتيح لواحد من الناس أن ينظر اليه أثناء ذلك لأبصر شيخاً غريباً حقاً .. لقد كان في ذهول تام عن كل ما يحيط به في هذه الغرفة الصغيرة ، حتى هذه الهرة الطفلة التي كان فيما مضى يجد في فضولها انساً له فيقضي معظم فراغه في مداعبتها ومعابثتها ، قد تركها الساعة مهملة من كل عناية ، فجعلت تدور من حوله وتحك جسمها بركبتيه ، وهي ترسل مواءها كأنها تترجم احتجاجها على ذلك الاهمال ... وكأنها تريد أن تستطلع شأن هذا الكتاب الذي استطاع ان يصرفه عنها .. فيغرقه في هذه الغمرة العميقة من الصمت والجمود والدموع ...

ولم ينتبه الشيخ لنفسه الا عندما وجد خادم المسجد الهرم واقفاً في مدخل الغرفة يلقي عليه التحية بالتركية .

واستحيى الشيخ ان يلمح الرجل عليه هذا الضعف ، فأصلح من شأنه بعد ان رد عليه تحيته . ثم خاطبه بالتركية يدعوه للجلوس كي يعد له قدحاً من الشاي . فاعتذر الخادم باضطراره للانصراف إلى بعض عمله . واخبره بأنه قد استبطأ خروجه فأحب ان يطمئن عليه قبل مغادرته المسجد .

ولم يجد الشيخ بدأ من تعليل ابطائه عن الخروج لمساعدته في تنظيف المصلّى ، فزعم ان صداعاً قد ألم به ، وانه سيضطر لالتزام فراشه طوال هذا اليوم لأنه سيتناول مسهلاً ..

وشيع صاحبه إلى خارج الغرفة ثم عاد ليدس جسمه في الفراش . إذ لم يجد نفسه قادراً على مزايلة مكانه . ولعله قد اراد ان يستأنف صلته بتلك الاخيلة التي حشدها على خواطره كتاب رفيقه الطرطوسي .

— ٥ —

لم ينس (رفيق) ان يخبر صديقه موزع البريد بأنه ينتظر رسالة من الشيخ حسن ، وكان هذا كافياً لاثارة اهتمام الموزع بارتقاب بريد قبرص . لأنه كان واحداً من هؤلاء الذين استمتعوا بأيام الشيخ . فهو ليس اقل من بقية الرفاق تلهفاً لاخباره .. فلما عثر على الرسالة المرتقبة ذلك اليوم اخذ يدور على الرفاق القدامى واحداً واحداً لينقل اليهم النبأ ، وليدعوهم إلى حانوت رفيق كي يشتركوا في تلاوتها ..

واكتظ الحانوت بعدد من القوم . مرهفين اسماعهم لهذا الكتاب الذي سيردهم ولو لحظة إلى حياتهم الغابرة .

عن قبرص ٢٠ أيلول ..

أخي الحبيب :

هذا كتابك الساعة بين يدي اقلب فيه الطرف الكرة بعد الكرة ، وما ادري كم من المرات بلغ هذا التقليب حتى اليوم ، ولكن الذي اعرفه ، هو انني قد اصبحت لا استطيع مفارقته لحظة منذ قرأته للمرة الاولى . فهو في صدري أينما ذهبت ، وهو رفيقي اذا اويت إلى مضجعي ، وقد آليت ان يكون زادي الاخير من هذه الدنيا ينزل معي إلى القبر يوم انزله ويلقى معي الله يوم ألقاه .

ولعل من غرائب الامور ان يهب الانسان قلبه لشيء وهو يعلم أنه ينطوي على السر الذي سيقضي عليه لا محالة :

لقد وضع كتابك الحد الفاصل بين عهدين من حياتي ، عهد الشك الذي كان منبعاً لا ينضب من الرجاء ، وعهد اليقين الذي ازال كل اثر للأمل .. بيد انه كان ذا فضل عليّ لا يكفر . اذ كان من شأنه ان يجمّد الدموع في عينيّ فتنقطع صلتي إلى الابد بتلك الايام التي كنت اجد فيها الدموع خير أنيس لوحشتي في خلوات الذكرى . لقد كشف لي هذا الكتاب ستار الحقيقة التي كنت اجهلها حتى يوم وصوله ، فعلمت علم اليقين ان هناك يداً خفية قد عملت في تأليف فصول

حياتي تأليفاً منظماً . انتهى بها إلى الخاتمة المقررة . كما يفعل القصاص الحاذق حين يتصور اوضاع قصته فيضع لها المدخل ثم الحوادث ثم النتيجة . فإذا مضى بها القارىء لم يفطن لروابط الفصول . فحسب نفسه امام المفاجآت . ولكن قليلاً من الذكاء كان يكشف له عن تسلسل الاجزاء وتعاون كل منها على اعداد النهاية .

فكيف والقصة من عمل القدر . والمؤلف هو الخالق الذي لا يعزب عن علمه شيء في السموات ولا في الارض . !

أجل يا صديقي لقد اصبحت موقناً انني لم أكن سوى شخص عادي في قصة فاجعة ، سار بها القدر الحكيم إلى خاتمتها ، بعد أن أعد لكل من شخوصها دوره المقرر .

تذكر يا صديقي أن الذي أرادني على تمثيل هذا الدور الذي نهضت به على مسرح هذه الرواية ، قد وهب لي العدة التامة لاتقانه . فجعلني مشلول الساقين ، وأودع في نفسي الشعور بنقص جسمي ، ثم احاطني بالمشككين ، والمؤمنين والعاطفيين والمتحجرين . وقد اودع في كل نفس من هؤلاء محركها الدافع إلى اتقان دورها ، ورماني اخيراً بتلك التلميذة الكبيرة التي ايقظت بي مكبوت الرغبات . فأسلمتني للمرحلة التي صارت بي إلى نهاية الفصول ! ..

تصور يا صديقي لو ان اي انحراف قد طرأ على هذه الجزئيات الخفية..أكنت انا الآن في هذه الجزيرة النائية؟أو كان

بـَهاء قد سافر إلى المهجر ليعود بجرثومة السل ؟ .

تصور لو ان لي ساقين كساقيك..افكان لي مثل ذلك الشعور بالنقص ؟ ومن ثم اكان انتهى بي الامر إلى هذه الخاتمة ؟ !

ألا ترى اذن ان هذا الاكتشاف الذي عثرت به ، جدير بأن يهوّن من اعباء التبعات التي كان حرياً بي ان اتحملها لو لم يهدني كتابك إلى الحقيقة ؟ !

قد يبعث تعليلي هذا في رُوعك ان هذه الصدمة قد ادت بي إلى بعض الانحراف عن الايمان بحكمة الله . فأكون كالذي يقحم نفسه غروراً في خصومة القدر .. !

كلا يا صديقي ان الذي حدث هو العكس تماماً .. لقد محت هذه الحقيقة كل اثر لما اعتور نفسي في ساعات الحيرة من الانحراف . فاذا انا استشعر كثيراً من الاطمئنان لما وصلت اليه . لقد طهر الالم الكبير قلبي من كل آثام الماضي . فاذا انا أدرك تماماً ما هدف اليه امين الريحاني عندما قال — إذا لم تخني الذاكرة — « إن الالم يرفع النفوس الكبيرة إلى اوج المعرفة فترى الحياة كاملة .. وترى كذلك الشعلة الآلهية التي تنير لبها وحواشها .. » وحسب هذا الكشف ان حرر نفسي من الغرور . فأصبحت راضياً باليقين انني ذرة تافهة في هذا الكون الذي تتولى ادارته يد الحكمة العليا .. وبذلك استرحت إلى الابد من سخافة الاعتراض على ما قسم لي من هذه الدنيا ، واصبحت بفضل ذلك شديد الايمان بأن خير ما يفعله الانسان في

هذه الحياة ان يكون متقناً للدور الذي وكل اليه .. لأن « كل امرىء ميسر لما خلق له . »

لقد أبصرت اليوم ما لم أكن لأبصره قط . وذلك ان ملاك السعادة التي يفتش عنها البشر عبثاً انما هو أقرب شيء إلى ايديهم . فليس هو في هذا الحطام الذي يحطمون نفوسهم في السعي لاحتوائه . وليس هو في الولد الذي يحسب العقيم انه أفضل ما يهبه الخالق لعباده . ولكنه في الحب : هذا الشعاع الإلٓهي الذي من شأنه ان يحيل كل شيء في الدنيا عالماً لا حد له من الجمال والخير .

ولقد انطلق اليوم هذا الشعاع الإلٓهي من أعماق نفسي حتى لأحسه يغمر كل شيء من الوجود. انه ليكاد يمزج روحي في كيان هذه الهرة التي ترسل غرغرتها وهي متمددة في حجري ، وفي هذا الاثاث التافة المبعثر في أطراف حجرتي المظلمة ، بل انه ليكاد يطوي في كياني كل شيء مما لا يصل اليه بصري من هذه الارض ..

لقد أحببتك من قبل وأحببت بقية الرفاق بقوة جعلتني أضيق ذرعاً بكل مشهد من هذه الحياة بعد فراقكم ، اما الآن فقد بت ادرك ان ذلك الحب لم يكن سوى تعبير عن حبي لنفسي وحدها ، ولذلك تركتكم عند اول صدمة أصابت هذه النفس . اما الآن فقد أصبح هذا الحب اوسع من أن يضيق بالهفوة او الظنة ، لقد أصبح حبي لكم جزءاً غير منفصل عن هذا الحب الواسع

الشامل الذي يستغرق كل شيء من هذا الكون .

ولا يزعجنك يا صديقي ان اقول لك انني اشفقت عليك ان تدفن حبك مع الراحلين من اصدقائنا فلا تجد فيه متسعاً للباقين من حولك .

ان الاغبياء وحدهم . وصغار القلوب هم الذين يخصون الراحلين بالحب ولا يرون في ما يحيط بهم من الناس والاشياء ما يستحق اي عناية .

تذكر يا صديقي أن هؤلاء الباقين سيذهبون يوماً كما ذهب أولئك . وانك يومئذ ستأسف على فراقهم مقدار اسفك على اسلافهم .. فلم اذن تصرف نفسك عن الحاضر لتحبسها في الماضي وحده ؟ !

اجل ان صغار القلوب وحدهم هم الذين يكبرون من قيمة الماضي على حساب الحاضر . اما النفوس المصفاة فهي التي تغمر بحبها كل شيء متجاوزة حدود الزمان والمكان .

انني أحب لك ان تهتدي إلى سعادتك الضائعة . ولذلك اتمنى لو تطلق سبيل هذا الاشعاع القدسي الذي اودعه الله جنبيك . لتتذوق جمال الوجود على غير الطريقة التي عرفتها حتى اليوم .

ستقول إن صاحبنا (الغريب) قد اصبح متفلسفاً . او قد اصبح متحجر العواطف لا يشركنا الشعور بفراغ هؤلاء الاحباب .. لا والله يا صديقي .. ان صاحبك ليس بالفيلسوف

ولا المتحجر ولكنه (انسان) وهو لم يصبح ذلك الانسان الجديد إلا بفضل هذا الشعور بفراغ الحلان .. ولعمري لن تكون الفلسفة ولا العلم ولا الأدب شيئاً يستحق احتراماً او اهتماماً اذا لم تكن غايته الاولى والأخيرة هداية الانسان إلى حقيقته الانسانية .

نعم يا صديقي . ليست هذه فلسفة . فالفلسفة مما يحتاج إلى درس كثير لم يتوفر لي في الكتب . بعد ان اصبحت في هذه الجزيرة التي انقطعت بها عن كل شيء عربي . ولكنه صدى ورجع لرسالتك التي مسحت عن عيني غشاء الماضي فنفذت من خلالها إلى الحقيقة . ثم ليست هذه الحقيقة الا صورة مصغرة من التي ادركها قبلنا رفيقنا الراحل « عاشق الغمقة » .. الم يكن يقول كما ذكرت : ان من الكفران لنعمة الله ان يأكل الفقير خبزته بين الجدران وهو قادر ان يغمسها في جمال الحياة .. » ذلك بالضبط ما انتهيت اليه بعد كتابك .. وانها لسخرية مرة ألاّ اهتدي . الا بعد الانصهار في بوتقة العذاب والأوصاب ، إلى الشيء الذي أدركه ذلك الحبيب الراحل بفطرته الصافية ..

لقد ضممت اسم صديقنا الشاعر إلى قائمة الموتى من الرفاق ، لانه عجز عن الوصول إلى الاستقرار المادي . ألا فقل لهذا الصديق : انه لا يزال لديك متسع لتعرّف السعادة ، ولكنك لن تصل اليها حتى تستجيب إلى ذلك الصوت الذي يهتف بك في جلوات الشعر .. انه صوت من عند الله يدعوك لتكون رسول الحب إلى تلاميذك والى الناس .

قل لصديقنا الشاعر : « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » فان افضل ما في الوجود هو ان تتحرر من الحاجة إلى الوجود ، ولن تجد حريتك الحقة الا في معرفة الحق ومحبته . وهكذا « تعرفون الحق . والحق يحرركم » .

واخيراً .. فلعلك تتهمني بالتناقض عندما تقارن بين مطلع كتابي هذا وما انتهيت اليه ، إذ تجدني هناك قد عرضت لعاصفة الالم التي نفختها رسالتك في جوانحي . ثم تجدني فيما بعد قد اسلمت نفسي إلى الاخلاد للواقع الذي يوشك ان يخلق في نفسي مناعة ضد الالم ..

وهنا اقول (لا) مرة اخرى فلا تناقض ولا مفارقات ، واذا انت أنعمْت قليلاً في المبدإ والنهاية . رأيت ان الالم الكبير الذي حملته إلي في كتابك لا يمكن ان ينتهي إلا بهذا الانقلاب الكبير الذي غير كل حياتي .

ثم لعلك تستغرب مني ان احدثك بكل شيء عن ذات نفسي دون أن أذكر شيئاً عن رفاقنا الراحلين .. فلأنبهك اذن إلى ان وراء كل كلمة هنا نفحة من وحي هذه الارواح الكريمة ، وهل كان لي ان اكتب ما كتبت لو انا استطعت ان اخلص من اثر إيحائهم ! .

ومالي لا اقول لك ان (مصطفى وبَهاء وعبد الحق وتقي الدين ..) قد اصبحوا معي اينما حللت .. انكم في طرطوس تبكون لموتهم. ولكني هنا احيا فيهم ويحيون فيَّ .. لقد انهارت

الحواجز الترابية التي كانت تقيدهم عن الاتصال بي. فهم الآن يملئون وجودي كله .. ولن يتأخر ذلك اليوم الذي اخلع فيه قيدي الترابي الآخر ليتم تلاقينا إلى غـــير نهاية ... ويسرني ان اقول لك : ان بَهاء راض عني ، وهـــا انذا اشهد ابتسامته الصافية القديمة تجلل وجهه كما كانت تجلله بالامس ، يوم كان ينظر إليّ بملء قلبه الطفل من خلال عينيه الضاحكتين.

ولكني لا اكتمك ان ثمة شيئاً واحداً لا يزال يجثم بثقله على جانب من قلبي ، فيترك في مدى عينيّ مثل السحابة الصغيرة السوداء تحجب عنهما كثيراً من جمال الافق الجديد .. انه بقية من الخوف المزعج تعتورني كلما تذكرت ان هناك انساناً لم يغفر لي بعدُ ما جرّت عليه شكوكي المظلمة من آلام .

وثق انت وبقية الاحبة من اخوانك ان الحصول على صفح تلك المرأة المظلومة عن ظالمها هو خير ما تسدونه إلى هذا الرفيق الغريب من متع الدنيا . وأسعد ما تزودونه به في طريقه القصير إلى ما وراء الدنيا ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . « حسن »

*

وانطوت بقية ايلول ثم الشهر التالي بأجمعه . فلما كان مطلع تشرين الثاني اذا موزع البريد يحمل إلى رفاق الشيخ حسن رسالة مضمونة كتبت مع عنوانها بالتركية ، وكانت ترجمتها كما يلي :

حضرة الفاضل ...

يؤلمني ان انقل اليكم نعي اخينا الشيخ غريب الضائع اذ توفاه الله يوم امس اثر انفجار دماغي لم يجد فيه علاج الاطباء .

وقد كان أملى عليّ عنوانكم أولَ مصابه . وعهد إلي ان ابلغكم نبأ مصيره اذا وافاه الاجل . واوصاني ان ابيع مخلفاته على ان احتفظ لنفسي بشطرها وابعث اليكم بالشطر الآخر لتقدموه هدية إلى اطفال مطلقته .

وقد بلغ ثمن هذه المخلفات اربعة جنيهات . ارسل اليكم طيه حوالة بنصفها لتتفضلوا بتحقيق رغبته .

وانني اذ انهي اليكم هذا النبأ اعزيكم ونفسي بهذا الصديق الذي ترك في نفوسنا اثراً لا يمحى . والسلام عليكم ...

خادم المسجد « ... »

انتقام

كانت الشمس تدلف نحو مغربها في بطء رهيب ، وكان « عبد الرحيم » لا يفتأ يرسل عينيه إليها بين الفينة والفينة في قلق يقض جوانحه ، وبوده لو تطوى له الأرض حتى يبلغ مأمنه في المدينة قبل أن يفارق شعاعها نظره ... ولكن اليأس من هذا الفرج كان قد بلغ مبلغه من نفسه . فهو لا يجهل أن المرحلة الباقية بينه وبين المدينة تستغرق مسيرة نصف يوم على الراكب الفارغ . فكيف به وهو مشغول بهذا القطيع المنتشر بين يديه من الأغنام ، والذي لا سبيل إلى اشعاره بحالة الخطر المحدق ليضاعف من نشاطه . ولينصرف راضياً عن تطلب الكلأ بين هذه الشعاب والحجارة المبعثرة في طريقه ! .

لقد ترك عبد الرحيم « حماة » منذ نصف الليل الماضي ، بعد أن قدر بدقة المسافة . التي تفصله عن بلده في الساحل ، وقسم مراحل طريقه كما يفعل القائد الخبير حين يضع خطة الزحف ، فكان مقرراً لديه أن يصل المدينة مع غروب شمس ذلك اليوم مهما اضطر للتساهل مع قطيعه .. ولكن « حساب

الحقل لم ينطبق على حساب البيدر » . فاذا هو يفقد ثلث الوقت في رعاية الماشية ، التي كانت من التعب والجوع بحيث لا يمكن قسرها على متابعة السفر في المراحل المقررة دون أن يدع لها الفرص الكافية للغذاء والاستجمام .. لذلك كان جزعه بالغاً حين وجد نفسه أصيل اليوم في « جورة الحرامية » وحيداً لا يؤنس وحدته سوى ثغاء الحملان ، وصفير الراعي ، الذي يسوقها بين يديه . ولم يكن بحاجة لمن ينبئه بخطر الموقف ، فهو يعرف هول الخصومة المستعرة بين الجبل والمدينة، ويعرف أكثر من ذلك قيمة وجود رجل مثله يسوق كل هذا القطيع من الأغنام . في وقت كهذا الوقت المتأخر من النهار . وفي مكان كهذا المكان الذي انتشرت أساطير جرائمه على كل شفة ولسان ، حتى بات مقرراً أنه أخطر بقعة في هذا الجبل . وأن نفس المدني الذي يجتاز به لا أمل لها بالحياة إلا عن طريق المعجزة ، فليس إذن بين عبد الرحيم وبين فقدان النفس والمال إلا أن يقع نظره على أول وجه من خلال هذه الصخور المنتشرة على حافات الوادي ، تتبعه وجوه ووجوه . ثم الأيدي تحمل البنادق والعصي و « القامات » لتسهم جميعاً في هذه الغنيمة الباردة ، ثم تعود كما بدأت وقد امّحى كل أثرها ، وذهبت بين سمع الأرض وبصرها ! .

وهيهات له أن يفكر بأي دفاع ما دام لا يحمل من أداة سوى هذا القضيب الهزيل الذي يخز به حماره .. هذا فضلاً عن أنه ليس من أهل الضرب والطعن ، فلو أتيح له الحصول

على بندقية محشوة بالرصاص لأعوزه أن يتعلم أولاً طريقة إطلاقها ، ثم لأعوزه أن يبحث عن الاعصاب التي تمكنه من ذلك ، فهو لم يسبق له أن عرف من الدنيا إلا الساطور والسكين يضعهما موضعهما من الذبيحة كأمهر جزار . ولكنه أعجز ما يكون عمّا وراء ذلك من أعمال الدفاع أو الهجوم ، ولا سيما في مثل هذا الموقف الذي تطيش به الابطال فضلاً عن أمثاله من الرجال ! .. ولئن كان في حياة المدينة ما يشجعه أحياناً على الصراخ والتهديد في وجه بعض الناس ، دفاعاً عن حق أو طلباً لمنفعة ، فذلك مما لا سبيل إلى مثله في مكان ترخص فيه النفوس ، فلا نصير لها من قريب أو دركي .. وشتان ما بين شجار يصير إلى سلامة ، ونضال لا يجدي فيه شيء مثل التصميم على القتل أو الموت ، فذلك هو الهزل كل الهزل ، وهذا هو الجد كل الجد ! .

وكان صاحبنا لا يبرح يرمق انحدار الشمس بقلب واجف يكاد يخلعه الجزع ، فلما لامس قرصها سطح البحر استغرقه مثل شعور المحكوم بالاعدام ، تبدو لعينيه المشنقة على خطوات ، فتثير في نفسه ذكريات الحياة كلها . وتتجمع في خياله محاسن الدنيا حتى ليحس في أتفه أشيائها معانيَ من الجمال لا عهد له بمثلها قط .

وكان السكون ملقياً رداءه على الارض لا يكدره سوى وقع حوافر الحمار على الحجارة المركومة في الاخدود الذي يجتازه ، وإلا حسيس القطيع يتزاحم ببطء أمامه ووراءه وعلى جانبيه ،

يحدوه زجر الراعي المتواصل الرتيب . وقد اختفى جسمه المديد في فروة بيضاء من جلد الضأن المقلوب . ولفع رأسه في كوفية حمراء من الصوف يدرأ بها اللاسعة القاسية من مساء نيسان ...

وكذلك كان الفضاء من حوله غارقاً في مثل ذلك الهدوء المهيب ، بعد أن اختفت منه تلك الاسراب من الماشية وجماعات الفلاحين يعودون بثيرانهم إلى القرى . وعلى أعناقهم أحمال النهار من المحاريث وأدوات الفلاحة . فيحس من هذا وذاك انقباضاً يكاد يبلغ حد الاختناق ... ولما رأى العتمة تتكاثف خيل إليه كأن قوة تمسك به فتكرهه على الوقوف . وجعل يدير عينيه في أبعاد الأفق ، كمن يتربص ظهور شيء أو صدور حركة . ثم اشار إلى راعيه بالامتناع عن السير . وهناك أطرق ملياً يتدبر الأمر .. ولم يكن بد من استشارة البدوي ليدلي برأيه في الطريقة التي يجب اتخاذها ... أيتابعان سيرهما في هذا الليل إلى الغاية المجهولة .. أم يبيتان مكانهما بانتظار القدر حتى الصباح !! ..

وكان هناك ضوء خافت يرسل بصيصه من منزل قروي على منحدر السفح القريب إلى يمين الطريق ، فلم يلبث البدوي أن أشار على صاحبه باللجوء إلى جوار ذلك البيت . ولكن عبد الرحيم ظل جامداً في محله لا ينبس . فما كان الضوء ليغيب عن نظره ، بيد أنه كان يرى فيه غير ما يرى صاحبه . فهو قد أصبح يخاف كل أثر للناس ، ويود لو يمضي عليه الليل دون أن يرى أثراً للانس .. ولبث الرجل في اطراقته لا يهتدي

إلى خير الامرين حتى وجد نفسه مدفوعاً في غير وعي إلى استجابة إلحاح الراعي . فترك لحماره أن يسير في مؤخرة القطيع يتسلق السفح إلى مصدر الضوء ...

*

لم يذهب لطف القروي وحرارة استقباله بشيء من قلق عبد الرحيم ، فقد ارتقى السلم الخشبي إلى السطح بقدمين مرتجفتين ، وألقى بنفسه على فراش اللباد الذي مُد لهما هناك ونظره لا يفارق حركة مضيفهما . وكان يستمع إلى كلمات الترحيب من القروي وفي نفسه تفسير آخر لكل حرف منها . فلا ريب أن وراء (أهلاً وسهلاً) فكرة جهنمية . ولا جرم أن في هذا اللباد الممدود صورة من الكفن الرهيب الذي ستُحمَل عليه أشلاؤهما بعد قليل إلى الحفرة المجهولة ... !

وذهب القروي ليعود بطبق الطعام تحمله اليهما زوجته . وعليه بضعة أرغفة من خبز الذرة إلى جانب صحاف ثلاث من (المتبلة) والعسل و (السوركة) ولم يشأ صاحب البيت إلا أن يبدي عذره للرجلين فذكّرهما بالمثل الذي يقول : (ضيف المسا ماله عشا). وكان طبيعياً أن يعتذر عبد الرحيم عن الطعام زاعماً أنهما تعشيا قبل قليل . إذ لم يكن في مقدوره أن يكره نفسه على أي طعام بعد أن خلع الجزع من نفسه كل شهوة . فضلاً عن كونه لا يأمن أن يجيئه الموت محمولاً في صحفة من هذه الصحاف . ولكن هذا لم يمنع الراعي من تجاهل ذلك الاعتذار . فمضى

يزدرد محتويات الطبق بشره . وألح القروي على عبد الرحيم بممالحته حتى لم يجد مسوغاً للمثابرة على الامتناع .

وفي تلك اللحظة أطل البدر مشرقاً بضيائه الفضي يبدد ظلمات الليل فيغمر وجه القروي . وإذا عبد الرحيم يمسك فجأة عن المضغ ليحدق في هذا الوجه الذي بدا له تحت هذا الضوء المفاجىء ... وبغتة بدا على القروي مثل تلك الدهشة حين وقع نظره كذلك على عيني ضيفه ، فانفلتت يداه عن ركبتيه ، وانفغر فمه قليلاً كمن يهم بالصياح ، ولكن الحروف جمدت في حلقه ، ثم ما لبث أن عاد إلى حبوته الاولى ، ورفع عينيه إلى السماء يتطلع إلى السحابة البيضاء التي اعترضت سبيل القمر .. وكانت الزوجة قد أقبلت مرة أخرى لتسأل رجُلها عن المكان الذي سيبيت فيه الضيفان ، فالتفت بدوره إليهما يستشيرهما : أيفرش لهما على السطح أم يفضلان المنام داخل البيت خشية البرد ؟ .

ولم يتردد (عبد الرحيم) في الاختيار ، وقد خاف أن يسبقه الراعي إلى إيثار شر الامرين . فاسرع بطلب الفراش إلى السطح ، وبعد قليل كان كل شيء قد تهيأ ، فتركهما القروي بعد أن ألقى التحية عليهما وانحدر على السلم .

وكان على عبد الرحيم ان يفرغ لأوهامه .. فما هو إلا أن خلا المكان له ولرفيقه حتى خلا هو إلى نفسه يتصور المصير الرهيب الذي أصبح قضاء لا مفر منه . لقد كان أثناء الطريق

يترقب الموت ، وفي نفسه أثر من الأمل بالحياة .. أما الآن وقد أصبح مقيداً في هذا الأسر القاهر . فقد بات عليه أن يشيع آخر رجائه من الدنيا .. !

وجعل يتذكر ما خالجه من الخواطر المبهمة حين أطل عليه سراج هذا المنزل المشئوم ، فأيقن أنها لم تكن سوى نذير صادق، كان عليه ان يطيع حافزه فيمضي لوجهه . او يقضي الليل في مكانه من الطريق لتنفيذ مشيئة الله .. وبدا له شؤم هذا الرفيق إذ أغراه بالعروج وراءه إلى هذا البيت ، الذي شاء الله ان يكون آخر مطافهما ، فحدثته نفسه بعمل شيء يشفي منه بعض كيده ، ولكنه أمسك عن ذلك خشية أن يكون فيه ما يعجل بالكارثة .

وأحس في هذه الفترة حافزاً داخلياً يدفعه بقوة إلى استعادة الماضي ، ليتذكر تلك الساعة المنحوسة التي طواها الزمن وراء عامين خلوا .. يوم أقبل هذا القروي نفسه على مطعمه ليتناول غداءه من الشواء ، فلما قضى حاجته أبى أن يدفع له الزيادة التي فرضها عليه علاوة على الثمن المعتاد ، فكان ذلك باعثاً لثورة لم تنطفىء جذوتها إلا بأن ينتزع عقال القروي عن رأسه فيشبعه به ضرباً ، ثم يحتفظ بذلك العقال كرهينة مقابل نصف (المتليك) . ولعل من سخرية الاحداث ان يكون العقال نفسه هو الذي يعلو رأس عبد الرحيم في هذه الساعة الرهيبة ، ليشهد معه خاتمة المأساة .. !

ولقد كان ذلك الحادث بنظره أمراً عادياً يومئذ ، ولكنه الآن

لا يسعه إلا أن يجد فيه صورة بشعة من الظلم الذي لا سبيل إلى نسيانه ، وكأن القدر نفسه قد أبى أن يغفر له هذا العدوان . فاذا هو يسوقه غنيمة باردة إلى يد غريمه ليحكم عليه بما يشاء وما تمليه شهوة الانتقام .. وأي انتقام هذا ؟ ! إنه لن يكون على طريقة « العين بالعين والسن بالسن » ، فذلك قانون لا محل له في (جورة الحرامية) ولكنه الموت .. الموت الذي لا يعرف هؤلاء حلاً سواه في مشاكلهم اليومية ! ..

وجعل الموت يلوح لعيني عبد الرحيم في كل شيء من أشياء هذا السطح ، وجعل يترقب الفاجعة في كل حركة تصدر من فِناء هذا البيت وفي كل خفقة يحدثها النسيم .

وكانت ليلة سوداء لم يعرف الغمض فيها طريقاً إلى عيني المسكين ، ولم يجد فيها من عزاء يؤنس وحشته سوى الصلاة والتسبيح ، والتضرع إلى الله بإلقاء الحماية السماوية على أيتامه التسعة لتكون لهم خير معين بعده !

ولكن الليل قد تتابع في طريقه إلى النهاية ، دون أن يحدث فيه حادث يعكر صفاءه، سوى نباح الكلاب بين الفينة والفينة ترد به على عواء الثعالب من أعماق الوادي ، وإلا صياح الديكة تتجاوب بين كل فترة وفترة من الليل . وعندما أطل الفجر الصادق على عبد الرحيم أحس معه باشعاع خفي من النور يملأ جوانب نفسه ، فلم يلبث أن نهض قائماً على قدميه كمن مسه حدس مفاجىء ، وأمسك بمنكب رفيقه يهزه ، وما هي إلا دقائق قليلة حتى كان

يهبط الدرج وراء الراعي في كثير من الحذر . ليبذل آخر محاولة للخلاص من هذا الأسر . ولكن ما أسرع ما خاب فأله ! فما هو إلا أن مست قدمه فناء البيت حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام صاحبه القروي . وقد بدا لعينيه وهو في ثياب النوم البيضاء من رأسه إلى كعبيه . كشبح الموت يقدم عليه بالأجل المحتوم !

ولم يترك القروي للرجل مجال التردد ، فأخذ يعتذر إليه عن حركته التي قد تكون أخرجته من النوم . وقال : « لقد نهضت مع المرأة لنعد لكم طعام الفطور . ومع أننا حاولنا جهدنا المحافظة على الهدوء . فما كان لنا بد من ازعاجكم كما يظهر » .

ووجد عبد الرحيم نفسه مرة أخرى مضطراً للخضوع أمام رغبة غريمه . فلبث في داخل البيت حتى عاد هذا وفي يمينه فرخان من الدجاج يزقوان ، وفي يساره سكين ما عتم أن مدها الى الجزار القديم وهو يقول : « لعلك أخبر مني بالذبح » ؟! .

وأدرك هذا ما يرمي اليه القروي فلم يرد أن يزيد الطين بلة ، ولم يجد بأساً في أن يتنازل هذا اليوم عن عقيدته الموروثة بتحريم ذبيحة النصيري . فامتنع عن إجراء الذبح . وأقسم على القروي أن يقوم بذلك .

وسرعان ما أعد الطعام . وأقبل الراعي البدوي يلتهم الصحاف واحدة تلو الأخرى . خالطاً بين السوركة واللحوم والعسل والبصل ؛ واصطنع عبد الرحيم هيئة المقبل على الأكل ، فجعل يتناول اللقمة . وقد خيل اليه أنها الوجبة الأخيرة التي جرت العادة أن

تقدم للمحكوم عليه بالموت قبل التنفيذ !

ولما هم صاحبنا بوداع القروي وجده يصر على مصاحبتهما إلى آخر حدود المزرعة . ثم ما لبث أن غاب عنه ليعود بعد قليل . وقد تنكب بندقيته الابراهيمية . وشكَّ خنجره في حزامه . وجاء بحماره وهو يلوك آخر مضغة من العلف !.

كانت الحوادث تتابع على نحو واحد من الابهام . فلا يجد عبد الرحيم لها تفسيراً يطمئن اليه أو يقطــع بصحته . فالقروي هو نفسه غريم الأمس وضحية حماقته يوم الغداء المشئوم .. هذا لا لا شك فيه ولكن ما باله يمضي معه على هذا النحو من التجاهل؟! أتراه قد أخطأ معرفته حقيقة . أم يتظاهر بذلك لتمكن له فرصة الانتقام في موضع أبعد عن الشبهة من بيته !!.

أسئلة حائرة ما انفك يطرحها على نفسه فلا يعثر لها بجواب . وما كانت هذه الأسئلة لتشغله عن مراقبة القروي وقد تقدم القطيعَ على حماره النشيط يشق له شعاب الطريق إلى الجادة العامة .. فهو أبداً يراقب كل حركة وسكنة منه . وهو أبداً يترقب اللحظة التي يتفرغ فيها لمحاسبته .. ولن تطول هذه المحاسبة على التأكيد ، ولن تحتاج لغير طلقة واحدة تندفع من فُوَّهة هذه البندقية فتضع الحد لكل هذا التساؤل ..

ولم يشأ عبدالرحيم أن يلح على غريمه بالعودة حذراً من استعجال المكروه . ولم يشأ كذلك أن يصرفه عن صمته الذي لازمه طوال هذه

المرحلة ، إذ كان يجد نفسه هي أيضاً بحاجة إلى الصمت لتفرغ إلى الاستغراق في نوازعها . وكانت المسافة قد بلغت حوالي الميلين عندما وقف القروي فجأة عن المسير بانتظار وصول صاحبه ، حتى إذا دنا منه مد اليه يده لمصافحته فلم يجد هذا بدأ من المقابلة . فمد يده اليه وقد أخذتها رجفة ظاهرة ، واستولت عليها برودة لا سبيل إلى إخفائها .

ووقف الرجلان هنيهة يتبادلان نظرة طويلة جامدة . وعندما همز القروي حماره للعودة كان قد تم لعبد الرحيم اليقين بأن رحمة الله قد حجبت أمره عن غريمه فلم يفطن إلى حقيقته . ولم ينتبه إلى شخصه . وغمرته نشوة من الفرح بالحياة فالتفت إلى صاحبه يستوقفه ثم يسأله في الحاح كثير أن يتقبل من قطيعه كبشين هدية . ولكن القروي ما لبث أن واصل طريقه ، وأرسل قهقهة مدوية مثيرة وهو يقول : « كلا .. ما اعتدنا أن نأخذ ثمناً للضيافة يا ... عبد الرحيم » !

وجمد لسان الجزار لحظة في حلقه أمام هذه المفاجأة ....

لقد ثبت له أن الرجل لم يكن قط على جهل من أمره .

الله أكبر

وقف السرجان أحمد فرفور مع سريته في الموضع الذي عيّن لها من مؤخرة الفيلق . وقد أخذ يصوب نظره ناحية المعركة يتابع قنابل الجنود وهي تنسف الأرض من حول الثائرين . ولكنه مع ذلك في شبه ذهول عما حوله من هذه المشاهد ، إذ كان مشغول الفكر في المهمة التي سُيدعى اليها بين اللحظة والأخرى ، بيد أنه كان على مثل اليقين من نوع المهمة ، فهو قد اعتاد أن يوقَف مثل هذا الموقف وأن يتلقى من رؤسائه الفرنسيين مثل هذه الأوامر ، التي تقتضيه أن يكون مستعداً مع جنوده لعمل آخر غير أعمال القتال ، ولكنه النتيجة المحتومة لكل قتال ، إذ يعهد اليه تصفية حساب القرية ، التي يتوهمون أنها عملت في مؤازرة هؤلاء الخارجين عن الطاعة .. وقد طال تمرسه بهذه المهمة أثناء المعارك السابقة حتى استحق إعجاب رؤسائه ، وأصبح في نظرهم الخبير الأول في حركات التخريب .. وها هو ذا يناجي حلمه بوسام جديد يضمه إلى هذه الأوسمة التي ملأت صدره تقديراً لبراعته في هذه الأعمال .

* * *

وكانت المعركة على أشدها . فهي كالنار المتشبثة بالهشيم ، ما تزال تعمل عملها منذ أربع وعشرين ساعة .. وكان كل من الفريقين قد صمم على الموت أو النصر في هذا المعترك الذي يتوقف عليه مستقبل الثورة كلها ..

فالمجاهدون منتشرون خلال الأشجار . وفي ذروات التلال يدافعون عن معاقلهم شبراً فشبراً . وقد تقطعت بينهم أسباب الاتصال . فاستقلت كل كوكبة في عملها . ترتجل لكل طارىء ما يلائمه من تقدم أو تقهقر ، دون أن تنتظر اشارة . وجعل كل من أفرادها يتصرف على ضوء تجاربه السابقة التي تمرس بها في هذه الجبال والأودية خمس سنوات من نضال ما يكاد ينقطع بينهم وبين هؤلاء الغاصبين .

وكان الجنود بدورهم معتصمين في أمكنتهم الأخرى من الطرف المقابل ، يحيطون بالمجاهدين في نصف دائرة . وقد ركزوا أسلحتهم الجبلية ومدافع الميدان والرشاشات ، يصبون حممها كالجحيم المفتوح على كل بقعة من معاقل الثوار . وكان قادتهم من الفرنسيين قد فطنوا لما يستهدفه خصومهم من ذلك الصمود اليائس بانتظار النجدة ، وكأنهم أدركوا من قلة الاطلاق الذي يرسله الثائرون ما انتهو اليه من قلة الذخيرة ، فأرادوا استباق الزمن للاستفادة من الموقف . فأصدروا الأوامر لكتائبهم بإرسال سيل لا ينقطع من المقذوفات .

ولم يكن المجاهدون على خطأ في تقدير قوة عدوهم ، فهم

يعرفون ان بينهم وبينه تفاوتاً في العدد والعدة . ويدركون أنهم غير قادرين على الثبات طويلاً في وجه هذا الإعصار الا أن يحزموا أمرهم على الفناء ، ولكنهم مضطرون إلى هذا الموقف لأنهم يريدون أن يوفروا الفرصة اللازمة لسكان هذه القرية المجاورة التي يسعى الفرنسيون الى احتلالها .

وفي القرية عدد كبير من الأطفال والنساء والشيوخ . الذين أقعدهم العجز عن المشاركة في الكفاح ، وفيها أمتعتهم وأثاثهم . وفيها كذلك تلك البيادر التي بذلوا قواهم في اعدادها واقامتها كالاهرام على مقربة من خمائل الغوطة .

وطبيعي ان مثل هذه الأشياء لن يكون من الميسور نقلها في يوم أو يومين . لهذا كان لا مندوحة للمجاهدين من التشبث لتغطية هذا العمل . مهما كلفهم الصمود من خسائر وجهود .. لا سيما انهم يعرفون قسوة هذا العدو الذي لا يراعي في ضحاياه عهداً ولا ذمة . فهو لن يبقي على شيء قل أو كثر ، ولن تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا .

ثم هم لم يقيموا تقديرهم هذا على اختباراتهم السالفة وحدها رغم كونها خير قياس لأعمال العدو ، ولكنهم أدركوا نواياه نحو هذه القرية بوجه خاص من هؤلاء الجنود المغاربة الذين فروا إلى صفوفهم يوم امس . بعد أن اطلعوا على خطة قادتهم . حين وزع هؤلاء أوامرهم على الجنود باتلاف كل شيء يلقونه في طريقهم ، وبإيقاد النار في مجموع القرية حتى يذهبوا بأخضرها ويابسها !.

وانهم كذلك لواثقون من استجابة الجنود لتلك الأوامر القاسية ، دون أن يجدوا رادعاً من تقريع الضمير أو وشائج القربى ؛ فالفرنسيون قد عرفوا كيف يجمعون هذه الحشود من المرتزقة حين اختاروهم من أبعد الجماعات عن الشعور القومي أو الديني ، وليس ذلك بغريب في عهد لم تتفتح فيه قلوب العامة بعد لمثل هذه المعاني العليا . ولم تتح لهم الإمكانيات الكافية لتفهم معاني الحرية التي آمن بها هؤلاء المجاهدون . إذ كانت القاعدة الشائعة يومئذ بين سواد العامة تتركز في هذا المثل الخطير : « اللي بياخد امي أسميه عمي » ! .

...وتزايد اطلاق النار مع ارتفاع الشمس في تلك الصبيحة العابسة . حين زحفت صفوف من الجنود عن طرفي الوادي لاحتلال المرتفع الوحيد الذي تبقى في قبضة المجاهدين . وسكتت البنادق القديمة في أيدي هذا النفر من المعتصمين وراء صخوره . ليستقبلوا المهاجمين بما احتفظوا به لتلك اللحظة من قنابل يدوية ..

وتهاوت الاشلاء على سفوح الهضبة لتؤلف مع حجارتها المبعثرة حواجز واقية للصفوف القادمة من ورائها ، وكادت القلة تتغلب على الكثرة مرة اخرى لولا نيران المدفعية الخلفية التي قطعت كل امل بذلك !

وكانت صفوف اخرى من الجنود قد تسربت من بطن الوادي إلى مدخل القرية ، فلما بلغت الشمس نقطة الزوال

جمدت لحظة في مستقرها ، كأنما تريد ان تطل على ذلك المشهد الجديد من الفظائع .. ولم يلبث شعاعها الفاتر ان انحجب عن جو القرية مستتراً بسحب الدخان ، التي بدأت تتصاعد من حرائق البيادر والمنازل ممزوجة باستغاثة الاطفال وعويل النساء !

وكان السرجان « احمد فرفور » في طليعة الجنود الذين عُهد اليهم بمداهمة القرية المتمردة ، فهو متقدم رفاقه لقيادة عملية التخريب ، يوزع الاوامر على من حوله من العرفاء .

وواصل « فرفور » طريقه بين النيران ، ليشرف على تحري البيوت واستخراج مخبآتها . وانتهى به المسير إلى مسجد القرية ، وقد انتصب في وسطها كالسحابة البيضاء يطل على انحائها بمنارته القصيرة المبنية من اللَّبِن .

وكان في نية السرجان ان يجعل المسجد آخر مطافه في هذه الرحلة الجهنمية ، وهو متوقع ان يجد عند اللاجئات اليه من بقية النسوة ما يروي ظمأه إلى الحلى والنفائس ، التي اعتاد ان يعثر بها في مثل هذا المكان .

وكانت صرخات القنابل لا تزال تملأ جوانب القرية ، فتطايرُ شظاياها هنا وهناك . عندما ارتفع صوت المؤذن من أعلى المنارة يسكب على فضائها المفعم بالدخان نداءه الخالد : « الله اكبر .. الله اكبر » . فتردد صداه أرجاء القرية وكأن في كل مكان منها مؤذناً يهتف : « الله أكبر » .

وجمد السرجان فجأة على مدخل المسجد يصعِّد نظره في

دهشة إلى هذا الشيخ الهرم الذي لم تصرفه الكارثة عن ارسال أذانه في اللحظة المعتادة .. ثم ما لبث ان خفض بصره إلى الارض ليغيب في غمرة من التأملات والذكريات .

... وخيل إلى « فرفور » انه يعود في لحظة خاطفة إلى ماض بعيد قد طواه قبل خمس عشرة سنة ، وخيل اليه انه يشهد لاول مرة ذلك الغلام الفقير الهزيل وقد جلس على كرسي قصير بجانب أبيه الشيخ . يهيء له الخيوط المشمعة لترميم الاحذية القروية . في ذلك الحانوت القديم من حوانيت «مصياف» القائمة على يسار المسجد الكبير .. وخيل اليه كذلك انه يسمع مؤذن ذلك المسجد ، وقد ارسل صوته في الظهيرة ينبه الناس إلى ربهم بهذه الكلمة : « الله أكبر .. » فيرفع ابوه الشيخ رأسه وهو يردد مع المؤذن في خشوع عميق : « الله أكبر .. اشهد ان لا إله إلا الله » ماداً صوته بـ (لا) كما يمدها الآن هذا الشيخ الهرم من كوة المنارة .. ثم ينهض الشيخ آخذاً بيد ولده الصغير ليحضرا معاً صلاة الجماعة .

ووجد « فرفور » نفسه مدفوعاً في غير إرادة إلى المقارنة بين طفولته في يومه ذاك ، وبين شبابه في يومه هذا ، وكان قد نسي حتى الساعة كلمة « الله أكبر » وكأنها تطرق سمعه للمرة الأولى ، فاذا هي تخطفه إلى عالم آخر يشهد من خلاله من اسرار هذه الكلمة ما لم يشهده في حياته قط . لقد فهم الآن معنى « الله

أكبر .. » انه أكبر من كل شيء .. اكبر من هذه النار التي تلتهم انحاء القرية ، واكبر من تلك القنابل التي تحصد حماة القرية ، بل انه لأكبر من كل هذا الكون بما فيه من قادة وجنود ودبابات ومدافع وطائرات ! !

وتنبه بغتة إلى صوت العريف « أسعد » يستأذنه بالدخول مع جنوده إلى ساحة المسجد لتفتيش من فيه من النساء .. فتذكر موقفه الشاذ ، ونظر إلى هذه الرشاشات في ايدي الجنود يركزون مؤخرتها على صدورهم ، وقد تلطخت وجوههم وايديهم ببقايا الدماء والرماد .. فاذا قشعريرة تنساب في أوصاله ، واذا يده تتحرك بالمسدس في غير وعي ، ولكنه لا يلبث ان يشير به إلى العريف والجنود ان يتخذوا أمكنة ثابتة لهم في اطراف القرية بانتظار تعاليم القيادة ...

وانصرفوا عن المسجد بعد أن اكد لهم انه قام بتفتيشه دون أن يعثر على شيء .

ولبث الفتى لحظة اخرى يرمق ببصره تلك المجموعة من الاوسمة المثبتة على صدره ، ولكنها كانت نظرة من نوع جديد ما عهد مثلها من قبل ..

وانطوت بقية ذلك النهار ، وأعقبه ليل ساكن يمد جناحيه على قرية قد خلت من سكانها ، واستحالت معسكراً لا تكاد تلمح فيه الا هؤلاء الحرس من الجنود يقومون على أطرافه .. وأخذ القدر أبصارهم فلم يلمحوا ذلك الشَّبَحَ الذي أخـــذ

يتسلل من جوف الوادي المجاور . لينضم إلى حماة الغوطة من بقايا المجاهدين ..

* *

وقطع صديقي حديثه عندما انتهينا إلى مدخل شارع (...) بدمشق ، ووقف يشير بيده إلى ذلك الاسكاف الذي اكب على حذاء قروي يرقعه ، وإلى جانبه غلام في العاشرة يفتل له الخيوط ..

وقال صديقي : أرأيت إلى هذا الرجل ذي اللحية الموخطة ، والعمة الصفراء ؟ . انه ذلك السرجان الذي حدثتك عنه . وهذا ولده .. انه هنا في هذه الحرفة المتواضعة منذ عشرين سنة ، منذ اليوم الذي انطفأت فيه آخر شعلة للثورة التحريرية بعد ان اتيح له ان يكفر عن كل ماضيه .

وكانت الشمس في نقطة الزوال . وقد ارتفع صوت المؤذن من المسجد القريب ينبه الناس إلى ربهم بالنداء الخالد : «الله أكبر» . فاذا الاسكاف الشيخ يضع الحذاء من يده ، ثم يرخي على باب الحانوت ستاراً من الشباك . ويمضي آخذاً بيد ولده إلى المسجد وهو يردد مع المؤذن :

« الله أكبر .. اشهد أن لا إله إلا الله .. » وسمعته يمد صوته بـ (لا) كأنه يريد ان ينبه جيرانه الآخرين إلى موعد الصلاة . !

صدمة حاسمة

كانت الشمس ترسل شعاعها فاتراً وئيداً فينتشر هنا وهناك على رؤوس المنازل القديمة المتزاحمة ، وينعكس مختلفَ الألوان على صفحة البحر المنبسط إلى مدى الافق ، وكأنه جبار نهض من نومه يتمطى وفي أجفانه بقية من السبات ، وفي جسمه بقية من الكسل ...

وكان « مقهى البلدية » خالياً من الناس إلا صاحبه وخادمه الصغير ، خرجا يرتبان كراسيه ذوات السطوح القديمة من القش البلدي فتبدو كصفوف الجند بانتظار القائد ... والا واحداً فقط من رواد المقهى القدامى كان يحتل احد هذه المقاعد مسنداً ظهره إلى احدى عمد الظّلة الخارجية ، وقد أرسل ساقيه في استرخاء على حافة السور المرتفع فوق الشط ، ومال برأسه إلى مقعد آخر جعله تحت مرفقه ..

ويبدو ان وقتاً ما قد انقضى على هذا « الزبون » في جلسته تلك .. ولعله لم يكن يحس حركة صاحب المقهى وخادمه من حوله ، ذلك لأن الرجل كان في برزخ بين النوم واليقظة .. فهو

بادي التعب في حاجة ماسة إلى النوم . ولكن رطوبة الصباح وحركة النسيم الناعم . يداعب وجهه وينضحه ببلال البحر . قد اخذتا عليه رغبة النوم فمضى يفتح عينيه في جهد ليطل بهما على هذا المنظر الضاحك ..

وفي الواقع ان بقايا ليلة حمراء لم تزل تعمل عملها في ذلك الجسم الفتيّ. فتتعاون على وضعه هذا الموضع الحائر بين النوم واليقظة ... انها بقية من دُوار الحشيش وخُمار الشراب تتفاعل في أحشائه ودماغه. فتسبغ على عينيه ونفسه ستاراً غير منظور ، يريه البحر من خلاله في غير صورته التي يراها صاحب المقهى ، وتجعل لهذا النسيم في إحساسه وقعاً غير الذي يستشعره ..

وكان يبدو على الرجل كذلك انه يغالب نفسه على الوعي ليرى ويحس الأشياء التي حوله كما هي . ولعله قد بلغ بعض ذلك اخيراً . فهو مسترسل الآن في غمرة من تفكير عميق تكاد تذهله عن كل ما حوله من هذه المشاهد . لأنها غمرة التفكير في حياته وفي بيته ومستقبله .

لقد كان « سعد الدين » واحداً من عشرات شباب طرطوس المخضرمين. أطل عليهم فجر الصبا في ظلمات الحرب الكونية الأولى . فانسحبوا في التيار الذي أطبق على هذا البلد أيامئذ ، يستسلمون بكل ما وسعهم إلى هاتيك المتع التي وفرتها لهم ملابسات النعمة التي نشئوا عليها . والفراغ من تبعات الحياة التي أناخت بأعبائها على معظم السكان . فكان معها الناس قسمين لا ثالث لهما : مترفاً أغرقه النعيم فاندفع يعب من لذائذه كيفما اتفق ،

ومحروماً طمره البؤس في ركام الشقاء فهو في جهاد اليائس ، لا همّ له إلا أن يصل إلى القوت من أي طريق وبأي ثمن ، حتى إذا انكشفت غمة الحرب عن الأرض وأقبل الاحتلال الفرنسي يجر من ورائه ومن امامه صنوف الشهوات إلى صنوف النكبات . غرقوا مرة اخرى في هذا الخضم الطاغي... فاذا هم صورة من هذا الشاب التائه لا عمل لهم سوى التفتيش عن اللذة في كأس من الخمر أو جوزة من الحشيش ، أو ليلة داعرة في ظلال الراقصات .

وتوفر لهذا الجو كل ما يعوزه من المغريات . فكما دفعت الظروف الجديدة إلى استحداث هذه الحانات ، وافتتاح هذه المقاهي لاستقبال الراقصات ولتيسير المقامرات . مما لم يكن لطرطوس عهد به من قبل ، كذلك أنبتت هذه الظروف طائفة من المرابين المحترفين يفتحون أيديهم على مداها لاقراض هذا الشباب المستهتر ، إلى جانب طائفة اخرى من الباعة الذين لم يجهروا بالربا فعمدوا إلى طرق شتى من الحيل تبلغهم الثروة المنشودة من اقرب سبيل .

وهكذا اندفع الفتيان المخضرمون إلى هؤلاء واولئك من صيادي المال ، كما يندفع الذباب إلى السكرة المسمومة . لا يبالون ولا يفكرون بمستقبل ، وحذق الصيادون حرفتهم ، وعرفوا مواطن الضعف والغفلة في فرائسهم ، فجعلوا يبالغون في استثمارهم إلى أقصى حد . فالخمسة الذهبات تكتب مئة أو مئات ، واوقية الملبّس قد تسجّل أرطالاً في دفاتر الباعة . ولم يكن لذلك من

نتيجة إلا أن تنتقل الثروات في سرعة طائشة من يد إلى يد . ومن طبقة إلى طبقة . حتى لترى الأسرة التي كانت ، لسنين خلت ، تملك الأرض الواسعة قد انتهت إلى التخلي حتى عن أثاث بيوتها لهؤلاء الذين استطاعوا أن يملكوا معظم ثروات البلد ، فيرتفعوا في قفزة واحدة من أدنى الحضيض إلى أعلى القمة ! .. وكم هنالك من هؤلاء الذين أصبحوا يستحوذون على أقوات الناس وقد بدؤوا حياتهم أيامئذ باعة سجاير وثقاب ! :

كان سعد الدين يستعرض في تأملاته الصامتة كل هذه الأوضاع . فيتساءل في غير وعي عن المصير الذي سينتهي اليه من هذه المصاير المزلزلة إذا هو استمر في سبيله الضالة ! ! !

ولم يكن الجواب مجهولاً لديه . وما كان ادراكه مما يحتاج إلى كبير ذكاء ، فهو يرى بعينه كل يوم مصارع رفاقه يسقطون في المعركة واحداً تلو الآخر . فهذا بيت « الحامد » وكان بالامس ملاذ الضيفان وملجأ المحرومين . قد عمد إلى تصفية حساب دائنيه ، فاضطر صاحبه الشيخ لان يخرج عن كل ما يملك من ضياع ومزارع إلى حفنة من أشتات المرابين ، الذين اطبقوا على أبنائه من كل صوب فارهقوهم بالاعباء ، وسدوا عليهم كل منفذ ، حتى لم يبق له من سبيل إلا ان يتجرد من ثروته كلها استبقاء لسمعته . وانتقاماً من هؤلاء الابناء الذين ما لبثوا أن فقدوا أباهم بعد ثروتهم . وشركهم الدائنون حتى في مساكنهم التي تركها لهم الشيخ الذاهب . فاصبحوا في المصير الذي سعوا اليه جاهدين . لا يكادون يجدون قوت يومهم

إلا بشق النفس . ويوشكون ألاّ يلقوا من رفاقهم القدامى من يرد تحيتهم إلا في فتور خير منه السكوت .

ثم يستعرض نهايات العديدين من اترابه على هذا النحو ، فاذا هو في سكرة الفكر بعد سكرة الخمر . ان الطريق لواضحة والنهاية المحتومة هي هي نفسها واحدة من هذه النهايات .

وعاد ليتذكر من جديد ماضي والده الذاهب ، فلا يستطيع إلا أن يعجب أشد العجب من ذلك البون الشاسع بين حياة أبيه الزاهد الورع ، وبين حياته المستهترة الماجنة .

انه غير قادر أن ينسى أبدا وجه ذلك الشيخ الذي قضى معظم سنيه السبعين في شبه خلوة للعبادة والتهجد ، لا يكاد يتصل بالناس إلا حين يقبل عليه تلاميذه، أينما حل من طرابلس أو طرطوس، لينتفعوا ببركته وليستمعوا إلى ارشاداته ومواعظه . ان ذلك الوجه لا يكاد يفارقه حتى في تلك الساعات الصاخبة على مائدة الشراب ، وفي خلوات البساتين والخرائب عندما يطبق شفتيه على حلمة (الجوزة) بين رفاقه الذاهلين . وها هو ذا الساعة يكاد يبصره بعينيه من خلال هذه الزرقة المائجة التي ينسجها الغمام على صفحة البحر الأبيض . ويكاد يلمح شفتيه نفسهما تتحركان بهذه الكلمة التي طالما تحركت بها شفتاه موجهة اليه أو إلى تلاميذه : « اتق الله » ! .

وأخيراً هل ينسى حالة هذه الأم المسكينة التي أرجأها القدر لتشقى به . فتلزم محرابها ساهرة كل ليلة حتى تستقبله يجر قدميه

تحت اعباء السكر إلى الفراش ! . انها هي أيضاً ما تبرح توجه اليه هذه الكلمة كلما فتحت له الباب في تلك الساعات المتأخرة من لياليه : « اتق الله » .

* *

وكانت الشمس قد ارتفعت في مسيرها إلى الزوال . فاذا صوت يقع في اذن سعد الدين فيرجعه إلى نفسه ، وإذا هو يشهد واحداً من معارفه الطرابلسيين يلقي عليه تحية الصباح .

وأدنى الرجل مقعده من سعد الدين حتى أوشك أن يلامسه ثم جعل يواصل حديثه في همس :

« .. لقد عرفت ذلك من السائق نفسه . وهو قد رأى الرجل عندما قبض ثمن الغنم من طرابلس : الفاً وخمسمئة عثمانية ذهباً . انها في حزام حول وسطه ، وقد اختار ان يركب هذه السيارة منفرداً إلى حلب خشية عليها من أي راكب يرافقه . وسيكون مروره بطرطوس في عصر اليوم . وقد اتفقت مع السائق على كل شيء ، فهو سيقف لنا عندما يرانا بانتظاره في الطريق ليحملنا إلى اللاذقية ، وسيكون علينا بعد ذلك اتمام المهمة ، ولن يكلفنا هذا سوى طلقة مسدس أو طعنة سكين . وها انذا قد استعددت لكل شيء . وطبيعي انني رغبت في اشراكك بهذه الصفقة لما أعهده من شجاعتك ، ولأنك أعلم مني بهذه المنطقة .. » .

قال كلماته الأخيرة وهو يكشف طرف زناره ليري صاحبه قبضة المسدس ومقبض الخنجر المرصع بالصدف توكيداً لعزيمته .

وأصغى سعد الدين إلى الحديث بكل سمعه ، وتنازعته وهو

مصغ اليه . شتى العوامل والانفعالات ، ولكن الذهبيات الالف والخمس المئات كانت أشدها أثراً في نفسه ! . ان قسمته من هذه الصفقة ستكون خمسمئة ليرة عثمانية . وهي من شأنها أن تريح عاتقه من كل ما عليه من الديون وتتيح له بعد ذلك متعة عريضة .

ثم ان الخطة محكمة فلا سبيل إلى اكتشافها ما دام في الارض متسع لجثمان ذلك الغني الحلبي ...

وكان الرجل يلاحظ إطراقة سعد الدين في قلق ممض تتنازعه هو الآخر شتى العوامل والانفعالات . فهو يخشى ان يرفض مشاركته فيضطرب موقفه ولا يدري ماذا يصنع ، بعد أن أطلعه على هذا السر الذي لا سبيل له ، من بعد اطلاعه عليه ، إلا أحد أمرين : إما التعاون على الجريمة وإما العدول عنها ، وهذه شر النتيجتين لانها ستحرمه الغنيمة التي قلما يطلع الدهر بمثلها عليه !

لكن الحظ كان بجانبه اذ لم يلبث طويلاً حتى رأى صاحبه يرفع اليه رأسه وقد برقت في عينيه الواسعتين ظواهر التصميم .

وافترق الرجلان بعد ان تواعدا على اللقاء عند جسر «الحصين» على مبعدة خمسة كيلومترات من طرطوس . وذهب الطرابلسي إلى النهر منفرداً وبعد ساعة كان سعد الدين يقصد إلى مكان الموعد من طريق الشاطىء ، وقد استبدل ببزته العربية ، من السروال المطرز وصدار المخمل ، ثوباً أصفر افرنجياً من ثياب العمال التي اعتاد ان يرتديها عند خروجه لمراقبة مزروعاته ، وجعل

على رأسه عقالاً أسود فوق كوفية بيضاء ، ادلى طرفيها حول وجهه حتى لم يعد من الميسور تبينه إلا في جهد .

وانحدرت الشمس نحو الافق فصبغته باشعة باهتة ، وكانت نسائم ايلول تهب رخية مستأنية على وجه النهر ، فتمتزج بخريره الحزين الباكي في نغمته الساجية الرتيبة . عندما أطلت سيارة صغيرة زرقاء من أعلى المنعطف تدرج نحو الجسر في غير اسراع .

وتقدم أحد الرجلين يستوقف السيارة وهو يشير بكلتا يديه ؛ ووصلت السيارة إلى حذاء الرجل متباطئة حتى جمدت . وتقدم هذا من السائق يسأله في ضراعة أن يحمله مع أخيه المكسور الرجل إلى اللاذقية مقابل الاجر الذي يريده ؛ فلم يجد السائق مانعاً من هذه الخدمة الانسانية . وفتح لهما الباب الخلفي ، ثم أخذ في معاونة الرجل على حمل أخيه إلى مقعد السيارة وهو يصرخ لكل حركة ؛ وقد جرى ذلك كله دون ان يدلي الراكب الغريب في جانب السائق بأي احتجاج .

ومرقت السيارة كالسهم المنطلق لتواصل طريقها إلى اللاذقية، وفي أقل من عشرين دقيقة كانت تشق سبيلها في منعطفات (الباص) جنوبَ مدينة بانياس ..

وكانت الشمس قد حجبت آخر قرصها عندما انحرفت السيارة عن الطريق العام لتتقدم قليلاً في معبر جبلي غير معبد ،

ثم تقف فجأة عن المسير ..

ولم يتسع الوقت لاي حركة حين رأى الرجل الحلبي نفسه بين مسدسين احدهما على صدره والآخر على مؤخرة رأسه .. واختنق صوته المذعور في حلقه فلم يعد قادراً على اخراجه .

وفتح احد الرجلين الباب يدعوه إلى النزول . ولكنه كان عاجزاً عن اي شيء . فكأنه سمر في مكانه حتى لم يمكن ازالتهُ إلا بأن دفعه السائق إلى الخارج . وهو متشبث بالمقود يتلجلج لسانه بكلمات غير مفهومة .

وتقدم رفيق سعد الدين يأمره بانتزاع منطقته المحشوة بالذهب . وكأن الرجل قد فطن عندئذ لما يجب ان يعمله . فرفع قميصه عن صدره وحل حزامه المخبوء ثم قدمه إلى الرجل . وقد انطلق لسانه المحبوس بهذه الكلمات : « اقسم بالله .. ليس لي في هذا المال سوى مئة ليرة فقط . وبقيته أمانة للناس .. فاقبلوا مني قسمتي حلالا لكم ودعوا لي نفسي واماني .. »

وتقدم الطرابلسي يدفعه من الخلف بفوهة مسدسه ليخرج به عن الطريق . وأمسك السائق بيمينه يجره إلى النهاية . وكأنه يستعجل النتيجة خوف المباغتات .

وكان سعد الدين جامداً وراءهم بحذاء السيارة ليقوم بما عهد اليه من مراقبة الطريق عندما وقع في سمعه صوت الحلبي يهتف بهذه الكلمة : « اتقوا الله .. » !

وانفلتت الدموع من عيني الحلبي . وانطلق لسانه من جديد

يعدد أسماء أولاده الخمسة .. كأنه يرثيهم واحداً واحداً .

وأحس سعد انتفاضة تضرب قلبه . وأشرأبت عيناه في غير وعي إلى الفضاء ، فاذا عضلات وجهه تتقلص فجأة . واذا هو يندفع صوب الرجال الثلاثة وهو يعد مسدسه للاطلاق ..

وصرخ سعد في صاحبه يأمره بالقاء مسدسه ، وبالسائق يأمره بإطلاق الحلبي : « .. حذار ! .. إن أية محاولة ستقضي عليكما .. » !

وكانت المفاجأة أشد من ان تحتملها أعصاب الرجلين ، وكأن الزبد المنتثر على شفتيه ، والتغير الطارىء على وجهه وعينيه قد احدثا في نفسيهما ما لم يكن في حسبانهما .. فاذا المسدس يسقط من يد صاحبه ، وإذا السائق يهوي إلى الارض .

وامتدت يد الحلبي في سرعة إلى المسدس المعفر بالتراب ، وانخطف إلى ناحية سعد الدين يطوق عنقه بيديه وقد جفت من عينيه الدموع . وأحس كأنه يولد من جديد .

وبعد قليل كانت السيارة تعود إلى الجادة وقد جلس في مقعدها الخلفي سعد الدين والحلبي وتجمع الآخر بجانب السائق ، وواصل الاربعة طريقهم في صمت إلى بانياس .

* * *

ويتذكر سعد الدين اليوم هاتيك الرحلة ..

لقد خرج يومئذ في تلك المغامرة ليربح خمسمئة من الليرات

الذهبية فلم يعد إلى بيته حتى كان قد خسر من جيبه ست ليرات ذهبية دفعها إلى السائق ورفيقه تعويضاً لهما عما فقداه بسببه من الغنيمة ، بعد أن رفض هو أن يتناول من الحلبي أية مكافأة على نجدته له ...

يتذكر ذلك كله فيغرق في اطراق طويل . ثم ترتسم على وجهه الاسمر المهيب ابتسامة عريضة ، ويلتفت إلى محدثه ليقول : « لقد كانت لحظة حرجة . ولكنها كانت الصدمة الحاسمة التي غيرت مجرى حياتي » .

ميلاد أم

عبثاً حاول « فؤاد » اقناع أمه العجوز بالعودة إلى البيت ، فقد أصرت على أن تظل بجانبه حتى تطمئن إلى سفره . وكان إصرارها ممزوجاً بكثير من الرجاء . فاضطر إلى الرضى بالواقع ، وأجلسها وابنته على مقعد قريباً منه في مكتب « المحطة » حتى أقبلت السيارة ، فوضع على يد العجوز قبلة باردة وفعلت الفتاة مثل ذلك ، ثم تسلقا السيارة الكبيرة إلى حيث أخذا مقعديهما الأماميين . ولكن العجوز لم تنصرف إلى المنزل وتقدمت إلى جانب السيارة تلاصق المدخل الذي يتكيء ولدها عليه .

وكان فؤاد يتبين في هذه الحركات من أمه ظاهرة غريبة لا يكاد يجد لها تأويلاً ، ورأى كأن في نفسها شيئاً تتماسك عن مفاتحته به ، ولعله ظن أول الأمر أنها بحاجة إلى نقود ، فصمم على أن يقدم إليها ما تبقى لديه من سفرته التي استهلكت معظم ما أحضره من المال اجرة الأطباء وثمن الأدوية . فعرض الفكرة على والدته ولكنها أبت أن تأخذ شيئاً . وأكدت له أنها مكفيّة الحاجة بما أعطاها أمس . ثم لم تتمالك أن فتحت الباب بيد

مرتجفة وجعلت تمس قدمه الجريح بحنان كثير . ولكي يطمئنها على صحته أكد لها أن الألم الذي كان يشكوه في الصبيحة قد زايله تماماً بفعل هذا الذرور الذي عالجه به الطبيب . ومع أن هذا قد سرّ والدته فهي لم تبرح مكانها وما زال ذلك التردد الغريب يغمر حركاتها جميعاً .. وشعر فؤاد أنه بحاجة للتخلص من هذا الجو فاستعجل السائق بالرحيل . وكان الركب قد احتلوا مقاعدهم . فما لبث أن دوّى محرك السيارة . وارتفع زعيق المزمار ايذاناً بالسير . وأراد فؤاد أن يودع أمه بلثم يدها ثانية. فإذا هي تكب على قدمه فجأة فرفع رأس أمه وأغلق الباب بلطف . وقد أحس على ظاهر قدمه . العارية إلا من الضماد . حرارة تلك القطرات الكبيرة من الدمع الذي انشقت عنه عينا العجوز بعد أن عيّت عن كتمانه .

وانسابت المركبة في بطء ثم جعلت سرعتها تتضاعف . وكانت عينا فؤاد قد علقتا بوجه امه وهي واقفة على حافة الرصيف. تشخص في جمود إلى المركبة تشق طريقها في زحمة المارة ، وما كادت تصير إلى مطلع المنعطف حتى بصر بالعجوز تنحط على الرصيف في كثير من الأعياء .

والمرحلة بين طرابلس وطرطوس تبلغ الستين ألفاً من الأمتار ؛ وبرغم ما في هذه الطريق من مشاهد مختلفة طالما استهوت عيني فؤاد . فقد ظل هذه المرة في شاغل عن كل ما حوله يستحضر في ذات نفسه تلك البوادر المبهمة التي طالعها لاول مرة في حياة تلك المرأة .

كان يتساءل في أعماقه عن البواعث الخفية لهذه البوادر ، فيقطع بأن ثمة مشكلة غامضة تتصارع في نفس والدته . فتبعثها على كل ذلك الاضطراب والبكاء . ولم يشأ قط أن يعيد ذلك إلى ما أصابه في بيتها من جرح عادي نزل بقدمه من شظية المصباح، الذي سقط من يد ابنته ليلة أمس . بل لم يستطع أن يرد ذلك إلى شيء من معاني الرحمة الوالدية . إذ هو على يقين من أن هذا القلب الذي لم يذكر أنه تحرك يوماً بأية عاطفة نحوه . لا يمكن لهذه المرأة أن تتبدل به قلباً آخر يبلغ به الحنان إلى مثل هذا الحد . وفي مثل هذه السرعة . لسبب بسيط هو هذا الجرح البسيط ! .

وكان يزيد في شكوكه من هذه الناحية ذلك الشريط الطويل الاليم من الوقائع المرة تعرض في خياله ذكريات أربعين سنة من كوارث ومآس أغرقت حياته . وضعضعت قواه . وصبغت نظرته إلى الوجود بلون الظلمة القاتمة . حتى بات من آرائه الشائعة : أن ليس في الدنيا شيء جدير باسم « الحب » الا ما يصوره تعطش الروح إلى الحب المفقود في أخيلة الشعراء . وحتى بلغ به ذلك إلى الارتياب بنفسه هو . فلا يستطيع الاقتناع بان عطفه على اولاده التسعة . برغم سعته وعمقه . يجوز أن يعد حباً مجرداً صحيحاً ! .

لقد نشأ فؤاد في بيت أخنى عليه شقاء الحياة الزوجية ، وكان من ثمراته هذا التنافر الكريه الذي يستحوذ على العلاقة بين كل فرد وآخر من اخوانه وأخواته . واذ كان أبوه قد توفي مبكراً فهو

لا يستطيع أن يحكم عليه بشيء من تبعة هذه الفواجع . ويرى أن أمه هي وحدها جرثومة ذلك الشقاء المستمر . وبرغم عنف هذا الحكم فهو يراه معقولاً اذا قيس بهذا التحجر العاطفي الذي قاساه مطلع شبابه من هذه المرأة . والذي دفعها إلى تزويجه وهو في السادسة عشرة . لتترك له اخوته القصر الاربعة كي يتسنى لها ان تتزوج بدورها ، في حين لم يكن قد مضى على وفاة والده سوى بضعة اشهر . ومهما ينس لا ينس انها عبثت بتركتهم اسرافاً وتبذيراً حتى لم تدع لهم شيئاً مذكوراً ، وانها هجرتهم اخيراً إلى طرابلس لتنقطع إلى ولدها الذي أثمرته من زواجها الثاني.. ومع ان هذا قد بلغ سن الرشد منذ عدة سنوات فهي لا تزال تثقل بتكاليفها عاتق فؤاد دون ان تعبأ بسوء حاله وكثرة عياله . وهذا كله قد دعاه لأن يقابل القسوة بمثلها . ولولا ان تدينه وتقواه يفرضان عليه إكرام امه لما استطاع ان يرى لها وجهاً او يقدم لها فلساً ...

وكانت السيارة اثناء ذلك تتابع سبيلها متزنة رشيقة . فلم يكد يشعر بموضعه الا حين وقفت على مدخل طرطوس . فأخذ بيد ابنته إلى البيت وهو لا يكاد يرى طريقه لما يغمره من تلك الخواطر المثيرة .

*

لم يكن مثل تلك السحابة العارضة ليدوم طويلاً في نفس فؤاد ، اذ لم يكن من اليسير تجريدها من هاتيك الافكار السوداء التي ركزتها حوادث الماضي الطويل في لحظة سريعة كهذه ،

وبفعل ظاهرة طارئة كالتي استقبلها ساعة سفره من طرابلس ، فسرعان ما نفض رأسه من اثرها وعاد إلى جوه القديم يسبح في تلك الغمرة التي الفها من تشاؤم يوشك ان يكون مرضاً . وأكب على دروسه الكثيرة يعدها لتلاميذه وتلميذاته . وغاص مرة أخرى بين هاتيك العشرات من دفاتر الانشاء والقواعد والأخلاق . يصرف بها نفسه عن دنياه المظلمة . وقد اتخذله محطة تلك الزاوية المنفردة من مقهى « الزهراء » بطرطوس ، يرجع إليها كلما فرغ من دروسه ، ليغرق في ضباب النرجيلة أو الدخينة . وليملأ أوقاته بالتحضير والتصحيح ، بعيداً عن ضجيج أطفاله في ذلك المنزل الذي يكاد يضيق بحركتهم ، فلما جاء ولده يخبره بقدوم جدته لم يعر ذلك كثيراً من اهتمامه ، ولم ير ضرورة للاسراع الى مشاهدتها . مع أنه كان يستطيع ذلك بما لديه من فترة بين الدرسين ، على أنه كان يجد صعوبة في هذا التريث لما ساوره من عوامل خفية تدفعه إلى استقبالها ، وسرعان ما أيقظت هذه العوامل مشاعره التي نسيها قبل أيام ، فأعادت إليه من جديد ذلك التساؤل الذي كان يتردد في صدره وهو عائد بالسيارة . وجعل يفكر عله يدرك ما إذا كان ثمة من صلة بين تلك الحيرة وهذه الزيارة .

وكان طبيعياً أن يعرض له هذا التفكير ، فهو قلما يحظى بزيارة أمه إلا في الأحوال النادرة . مع كل ما يبذله من الالحاح عليها للمرور بأسرته في خلال زياراتها الكثيرة لشقيقته في بانياس ، فهي ، كما صارحته مراراً . لا تستطيع أن تحتمل الصبر

ساعة واحدة على عشرة أطفاله وزوجته . ولم ينسَ بعدُ النفرة التي غادرت بها بيته قبل شهر عندما ألمت بهم لأخذ مرتبها ، فلم ترضَ أن تنزع مئزرها . ولم تقبل أن تشركهم في الغداء ، مما اضطره لأن يتوجه إليها بكلمات عدتها اساءة لا تغتفر . مع أنه لم يصنع شيئاً سوى أن أنكر عليها هذه القسوة التي ما تزال تنغص بها حياته .. فما بالها تنسى هاتيك الاساءة . وتخصه بهذه الزورة ، مع أنه لم يفارقها إلا منذ أيام ؟ ! .

ورأى نفسه بحاجة إلى تفسير هذه المبهمات . فلم يتمالك أن تابع رغبته بالذهاب إلى البيت قبل الوقت المعتاد . وهناك استقبله مشهد جديد آخر ، ولكنه لذيذ ماتع ما لبث أن بعث في جوانحه هزة منعشة . فقد رأى أمه متربعة في وسط الغرفة الكبيرة ، يحدق بها الكبار من الأولاد وعلى ذراعيها وفي حجرها بقية الصغار ! . واستهواه المشهد فألقى بنفسه بين الاحدى عشرة نفساً ليأخذ قسمته من ذلك الظل ، وجعلت الأم تضم ولدها بلهفة سرت عدواها إلى نفوس الجميع ، فانهمرت الدموع من اعينهم .

والواقع أن هذا كله ، على ما فيه من جمال ومتعة ، لم يذهب بحيرة فؤاد ، فهو ما برح يتساءل عن السر في هذا التغير الفجائي ، ولكن التساؤل لم يدم طويلاً هذه المرة ، فقد جاءت العجوز في اليوم التالي تشرح له ، على استحياء ، أزمة أخيه ، وتذكر ألمه من تلك البطالة التي يتخبط في بحرانها منذ أن ترك

الجيش البريطاني . وأخيراً طلبت إليه أن يمد يده لتفريج هذه الضيقة بمئتي ليرة يستعين بها في تجارة صغيرة على أن تعيدها اليه قريباً .

ووقف فؤاد مطرقاً أمام هذا الطلب ، وقد أيقن أنه سقط على الحل المجهول . ولكنه رضي بأن يشتري تلك السعادة التي أضاءت ظلمات بيته بهذا المبلغ من المال رغم حاجته الشديدة إليه ، وكان يطوي جيبه على مئتين وخمسين ليرة مرتب الشهر . فلم يتردد أن يقدمه إليها بأجمعه ، وأن يقنعها بقبوله كله على الرغم من إلحاحها بالوقوف عند المطلوب .

*

وانقضى شهر كامل على ذلك اليوم ، ولكن الشهر عجز عن أن يمحو من نفس فؤاد أثر تلك النشوة السماوية التي تذوقها للمرة الأولى في حياته . وعندما أطلت عطلة الربيع لم يلبث أن تأبط حقيبته ليقضي الخمسة عشر يوماً في ذلك الربيع الجديد من جنة الأمومة بطرابلس .

وكانت أيام وليال من عمر الخيال اتصلت أحلامها . فالأم لاقرار لها إلا على مقربة من ولدها ، وهذا لاراحة له الا حين ينعم بتلك الاستلقاءة على حضن العجوز تمسح شعره الموخط بأناملها الراعشة ، لتعيد لخياله ما غاب عنه من أطياف الطفولة . وكان أمتع ما في تلك الهنيهات ذلك التناجي الحنون : تستعرض ماضيها الشريد فتبكي ، ويترجم الولد هناءته بهذا التلاقي

الروحي . فيثور القلبان حتى لا يطفىء حرّهما الا الدمع .

ولم يبق في نفس فؤاد متسع للريب في صدق الحالم فلم يخطر في قلبه قط ذكر المرتب . ولذلك كانت دهشته كبيرة عندما جاءت أمه تدفع إليه . في نجوة من ولدها الآخر . مجموع القرض ساعة أقبل لوداعها وهو على أهبة السفر . وحاول جهده أن يرفض ولكنها أصرت . وحاول كذلك أن تستبقي بعضه على الأقل لمصروفها ولكنها أبت ، ثم أكدت عليه في إلحاح ألاّ يكلف نفسه شيئاً من أجلها بعد اليوم : « إن أولادك أحق بذلك .. وإن تعليمهم ومعاشهم لينوء بهما دخلك القليل .. وأسفاه ! . »

وبدأ فؤاد منذ ذلك الوقت حياة جديدة تجلت مظاهرها في كل شيء من وجوده .. حتى مقهى « الزهراء » جعل يخلو منه كل عطلة أسبوعية لأنه لا يطيق أن يقضيها بعيداً عن أمه ، وأراد ذات يوم ان يكتب إلى صديق له في موضوع خاص فلم يستطع ان يتخلص من وحي ذلك الشعور الجديد فختم كتابه اليه بقوله :

« ... حتى تعابيرها الخاصة .. تلك التعابير التي طالما تأذيت من جفافها قد اصبحت اليوم أحس لها وقعاً لا يفوقه الا بيان الله ، انه حديث القلب الذي ينضج بالمحبة ... تلك التي هي قوام الحكمة الخالدة والخيال الاثير في أفئدة الفلاسفة والشعراء .. الناس يا صديقي يعرفون نوعاً واحداً من الحب هو حب المرأة

الغريبة ، وليتهم يعلمون ان هناك ضرباً اسمى واخصب وابعث للسعادة واحق بالخلود هو حب الأم ..

انني أَيها الصديق لأسعد مخلوق، فقد «ولد لي القدر أُمّاً ، وأَرجو أَن لا تُحرَمَ ميلادَ مثل هذه الام .. »

جندي مجهول

من الغريب حتماً أن اتحدث عن رجل لا أعرف من اسمه إلا هذه الكلمة التي يعرفه بها عامة الناس « الزناتي » . وطبيعي انها ليست اسمه بل قد تكون لقباً له او لأسرته التي لا أعلم عنها شيئاً . ولعل أغرب من ذلك أنني مع جهلي اسمه أحس انه اقرب رجل إلى قلبي ، واحب مخلوق إلى نفسي في من عرفت من الناس . هذا إلى انني لم اتصل به شخصياً ، ولم أحدثه بكلمة قط إلا مرة واحدة إذ لقيته في أحد شوارع طرطوس . وقد لف ساعده بضماد ربطه إلى عنقه . فوقفت أحييه وأسأله عن صحته في عبارة قصيرة أجابني عليها بمثلها ، ثم مضى لسبيله ومضيت لسبيلي وانا اشعر ان في نفسي رغبة لم يتسنّ لي ان اروِيها .. رغبة كانت تدفعني إلى ان ألثم هذا الضماد الذي يلف به ساعده ، وأستنشق رائحة ذلك الجرح الذي يحجبه ، وأن أملأ نظري من تينك العينين المشعتين ، وذلك الوجه الاسمر المهيب الذي يزينه شارباه المتطلعان الى أعلى ..

ولم أكن الوحيد الذي لفت نظره مشهد ذلك « المغربي »

الاسمر يومذاك . فقد كنت أرى كثيراً من الاعين تتطلع اليه باللهفة نفسها التي غمرتني ، بل لعل كثيرين من القوم كانوا ينظرون اليه في مزيج من الاعجاب والحسد ، إذ كانوا يتمنون ان يكون لهم أيضاً مثل ذلك الجرح الذي ظفر به أثناء زحفه مع جنود الجيش السوري في معركة (سمخ) . . زد على ذلك انهم يعرفون عنه مثل الذي أعرف من ذلك الموقف الرهيب الذي اتسم به الزناتي يوم فر من ثكنة الحامية الفرنسية بطرطوس ، ومضى يشق شوارعها على مشهد من الناس . وقد احتضن رشاشه التومي إلى صدره ، مستعداً للقاء كل من يعترض سبيله من جموع المستعمرين وأذنابهم ، حتى انتهى إلى مركز الجيش الوطني فخفض سلاحه للحارس . وأسلم نفسه اليه ليكون بعد ساعات في صفوف المجاهدين من جنود البلاد في حماة .

وهم مثلي أيضاً يعرفون ان الزناتي لم يغامر بنفسه وحدها يومئذ ، بل غامر كذلك بطفله وزوجه اللذين حُجر عليهما في الثكنة مع أُسَر الجنود الآخرين . كرهائن لمنعهم من الاستجابة لداعي الواجب في أخطر مرحلة مرت بها ديار الشام ، فكانت حركته هذه مثَلاً أعلى في التضحية ما لبثت أن تسربت عدواها إلى بقية رفاقه من المغاربة ، فاذا هم يتسللون الواحد تلو الآخر تلبية لصرخة الدم ، وانتقاضاً على المستعمر الغاشم ، الذي ركب رأسه فراح يضرب بقنابله البلاد السورية لا يفرق بين مكان ومكان ، ولا بين انسان وانسان ...

وما كان ليخطر في بال « الزناتي » حين أقدم على مخاطرته

نالك . أن القدر سيجمعه بحبيبيه مرة أخرى ، فهو إنما فعل ما فعل مهاجراً إلى ربه. يتطلب رضوانه الذي هو فوق الزوجة والولد . فلما كشف القدر ظلمات الانتداب عن سماء الشام ، وجلا العدو خاسئاً مدحوراً عن ربوعها . لقيهما بعد يأس ، ولكنه لم يطل المقام بجانبهما حتى فارقهما كرة أخرى ليتم واجبه نحو فلسطين . وليعود بعد قليل حاملاً ذراعه الجريح ليقضي بينهما دور النقاهة .

وانطوت الأيام والشهور بعد ذلك .. وجاءت الهدنة الأولى ثم الثانية . ورأى أولو الأمر أنهم في غنى عن « الزناتي » وأمثاله من الجنود . فسرحوهم ليلقوا بهم الى الشارع صفر اليدين من كل وسيلة إلى الحياة .. وفترت الحمية الشعبية في نفوس الجماهير فلم يعودوا يعجبون بالسواعد الجريحة في جهاد فلسطين . ولم يعودوا يذكرون أيام العسرة . حين هاجر هؤلاء المغاربة إلى ربهم ليتعاونوا على انقاذ الشام من فظائع جنود (دوغول).

* * *

ولقيت الزناتي مرة أخرى في نفس الشارع الذي جمعني به يوم كان جريحاً .. ولكنه كان رجلاً آخر غير الذي عرفته .. لقد انطفأت تلك الشعلة المتأججة في عينيه ، وتهدل ذلك الشارب المتطلع إلى أعلى ، ولاح لي كأنه تقدم في عمره عشرين سنة أخرى ، فبدا للناظر كأنه في نهاية الشيخوخة .

وقد رأيته يومذاك يحمل إبريقاً من الصفيح منتقلاً به من مكان

إلى آخر وهو ينادي : « سحاب سخن » .. ولكن صوته كان عاجزاً عن بلوغ آذان المارة بما اعتراه من ضعف لم يكن معهوداً من قبل .. ولاحظته يسير متهالكاً حتى لا يستطيع الاستمرار طويلاً في السير ، فيضع ابريقه بين الفينة والفينة ليقضي لحظة على جانب من الرصيف ، يسترد فيها قدرته على متابعة طريقه .

وانطوت الأيام كرة أخرى واسترحت من رؤية « الزناتي » وابريقه كما استراح غيري . وفقدت كذلك ذكر اسمه ، حتى كان ذات يوم فإذا رجل يتقدم مني بصحفة من المعدن الصدىء ، ويهمس في أذني اسم « الزناتي » فعرفت أن الرجل مريض . وأن هذا الفقير من جيرانه يستجدي له الأكف ليتدارك له ولأسرته قوت يومهم .

وأحسست انقباضاً عميقاً يستحوذ على صدري أمام هذا النبأ ، وحاولت أن أثير حمية الأصدقاء الذين يعرفون قصة « الزناتي » ولكن النتيجة لم تكن مما يرضي .. ذلك أن القوم قد ضجروا من هذه الحالة التي لا نهاية لها ، فهم كل يوم مدعوون لمعونة الزناتي ولمعونة غيره من هؤلاء المحرومين الذين يتكاثر عددهم يوماً فيوماً .. وعبثا جهدت في أن أذكرهم بماضي هذا الرجل ، وبغربته وتضحياته . فكأن النفوس ليست هي التي عرفته وأعجبت به من قبل . وكأن الآذان التي أذكر لها اسمه قد تغيرت ، إذ فقدت الحس الذي كان بالأمس يغمر بجماله ذلك الاسم .. هذا فضلاً عن أن أصدقائي هؤلاء ليسوا في وضع مالي يساعدهم على تحقيق رغباتهم الكريمة .. فهم من أوساط الناس وإن كانوا من

أعلاهم في ميزان الأخلاق .. ولم يكن من الميسور الاستعانة بأغنياء القوم ، فهؤلاء في شغل عن مثل هذه التوافه من الأمور ، وعن مثل هؤلاء الصعاليك من الناس بأشياء أخرى وأناس آخرين! ..

ولذلك كان خير ما نعمل للزناتي أن نسعى لإدخاله المستشفى علّه يسترد صحته فيقوى على كفاية أهله .. وهكذا أتيح لي أن أنسى «الزناتي» مرة ثانية بعد أن استطعنا أن نعهد به إلى رحمة الأطباء ..

*

...وكنت في غرفة الدرس أعرض لتلميذاتي شيئاً من حياة أبي العلاء ، وكان لا مندوحة لي من الكلام عن تشاؤم هذا الشاعر الناقم الحزين ، وإيضاح أسبابه وبواعثه ، فإذا لساني ينزلق بهذا البيت من شعره :

فلا تعذليني .. كلنا ابن لئيمة وهل تعذب الأثمار إن لؤم الغرس!

وإذا التلميذات ينقسمن على أنفسهن في شأنه ، فمنهن من يسوغ غضبته على نفسه وعلى الناس ، ومنهن من ينكر عليه هذا الاسراف في سوء الظن بالطبيعة البشرية ..

وكان متعذرا عليّ أن أوفق بين هذه الآراء ، فجعلت أدور حول الموضوع في رفق وأناة ، أكشف من جوانبه ما يتلاءم مع إدراك طالبات في صف الشهادة المتوسطة .

وأخذ عيني في هذه اللحظة منظر جنازة تطل من مطلع الشارع المقابل لنافذة الصف ، وقد أحاط بها عدد ضئيل من

الفقراء والحمالين وصغار الباعة يتداولونها . فوجدتني أنصرف إلى ملاحظتها في غير وعي ؛ وتنبهت لصوت الجرس مؤذناً بنهاية الدرس ، فأسرعت أهبط السلم لألحق بالمشيعين . وما إن انتهيت الى المقبرة حتّى تلقيت صوت زميلي الاستاذ التونسي يختم رثاءه للميت بهذه الكلمات :

«..لقد بذلت لوطنك وأمتك كل ما تملك من جهدك وحياتك، ولكنها ضنت عليك حتّى بالعلاج الذي يخفف من آلامك ؛ وخاطرت من أجلها بأحب شيء اليك : زوجك وطفلك . ولكنها تجاهلتك في الساعة الأخيرة ؛ ولولا هذه البقية من القلوب الطيبة في صدور المساكين من إخوانك هؤلاء لما وجدت من يواريك التراب !..

أجل ، يا مواطني . لقد أنكرتك الأمة التي ضحيت في سبيلها بكل عزيز ، فكان جزاءك أن ردك المستشفى إلى بيتك ، لأن كليتيك المريضتين تتطلبان علاجاً لا يتوفر لمثلك في مشافي الدولة ... وقبل ذلك ضنّ عليك المسئولون حتّى بكلمة العزاء يوم رموا بك إلى الشارع مهيض الجناح . كحيوان فقد القدرة التي تنفع صاحبه ..!

ولكن لا تأس يا مواطني لما فاتك من العطف والعون . فما أنت غير واحد من شباب هذه الأمة المؤمن . قذف بهم القدر في أحلك مراحل تاريخها . فكان عليهم أن يجعلوا من نفوسهم قرابين الفداء . يسقطون عطاشاً لإروائها . ثم يهلكون ولا يكاد يذكرهم أحد من أبنائها .

أجل يا أخي .. إنك لأحد هؤلاء الجنود المجهولين ..فسلام عليك في المساكين ، وسلام عليك في المجاهدين . وسلام عليك إلى يوم الدين ...»

*

وتفرق المشيعــون إلى أعمــالهم . ورجعت أتلمس طريقي مشغولاً عما حولي بذات نفسي . وكان إلى جانبي واحد من هؤلاء الباعة الصغار . فلما انتهينا إلى خارج المقبرة انحنى عليّ يقول : « لقد تذكرت الساعة مصير طارق بن زياد . وموسى بن نصير يوم انتهيا من فتح الأندلس ليستقبلا نصيبهما من شقاء الدنيا ...»

ولم أجب صاحبي هذا بشيء ، وعجلت إلى المدرسة . وفي نيتي أن أجمع تلميذاتي لأخبرهن انني وقعت على التعليل المقنع لنظرة أبي العلاء ..

أجل لقد وجدت هذا النور في حياة «طارق وموسى»ثم في مصير «الزناتي» .. هذا الجندي المجهول ..

مأزق حرج

ما كان يهمني أن أتعرف شخصيات الزائرات في بيتنا عندما رجعت في الظهيرة لآخذ قسطي من طعام الغداء والنوم .. ولكن النبرات القديمة التي تلقاها سمعي من الغرفة المجاورة ردتني إلى حالة أخرى وجدتني معها مهتماً بهذه المرأة التي ما زلت أهتم بتعرف شأنها وتقلبات الحياة عليها ، منذ أن تركتُ جوارها إلى هذا البيت ..

وسمعتْ بدورها صوتي أخاطب إحدى بناتي . فبادرتني بالسلام والسؤال عن صحتي وحالتي . ورددت تحيتها بخير منها ؛ وسألتها عن أولادها وما صاروا إليه كذلك ؛ فشكرت الله على فضله ، وأخبرتني أن كبيرهم (محمداً)وهو في العاشرة من العمر ، قد أودعته مصنع نجار . وهي ترجو أن يتقن هذه الحرفة ليتولى بعد سنوات تدبير إخوته الثلاثة الصغار .. ولما سألتها عن (رشيدة) لم تستطع أن تكتم تنهدة عميقة أتبعتها بهذه الكلمات : رشيدة ! .. ويلاه على رشيدة !.. إن أم غسان تعرف قصتها وستحدثك عنها »..

ولم أشأ أن أحرجها بزيادة الاستفهام فاكتفيت بانتظار الحديث من زوجتي عن هذه الفتاة من بناتها ..، وتوقعت أن يكون ثمة سر زوجي لا يحسن أن يسمعه رجل من امرأة غريبة ..

وكان الذي يعنيني من أمر هذه المرأة أن أعرف المصير الذي انتهت إليه مع أولادها من دروب الحياة . فقد كنت أشعر بحنين خفي إلى الاستفسار عن أحوال جيراني القدامى جميعاً . وبخاصة هذه الأسرة التي فقدت رجلها قبل أربع سنوات . فتركها لهذه المرأة التي وجدت نفسها منذ ذلك اليوم أمام تبعات جسام ينوء بها كاهل الرجل القوي ، فضلاً عن امرأة ضعيفة فقيرة ..

وكنت أعرف أن المرحوم لم يدع لزوجته وأطفاله أي وسيلة تساعدهم على تأمين قوتهم ، إلا حماراً عجوزاً قضى في صحبته بضع سنوات ينقل على ظهره أثقال الناس ، ليوفر لأسرته قوتها الضروري من الخبز الذي قلما يغمس بادام .. وكان قد لبث في مهنته تلك كل سنيه الثلاثين التي استوفاها بعد عودته من المهجر الاميركي صفر اليدين .. فما زال يكدح لهذه المجموعة من الأنفس حتى أقعده المرض ، ثم ذهب به الموت ليتخلى عن أعبائه لهذه المرأة .

وكان يعجبني من أرملته هذه أنها لم تستسلم إلى اليأس الذي كان حرياً أن ينيخ عليها بكلكله بعد صاحبها ، فمضت تسعى لاستدراك القوت بكل وسيلة تتاح لمثلها من وسائل العيش الشريف . فهي تغشى كل يوم بيوتاً معدودة لتغسل هنا ، ولتنتقي الحبوب

هناك . ولتساعد هنالك في مختلف أعمال المنزل . ثم تعود في الظهيرة حاملة ما يتفضل به عليهم أصحاب هذه البيوت من خبز أو طعام أو ثياب عتيقة . فتضعه لأطفالها وقد ملأها الشعور بنعمة الله الذي هيأ لهم كل ذلك الخير !..

ولم تكن بحاجة لأكثر من هذه الفضلات تحفظ عليها وعلى أطفالها صلة البقاء في هذه الدنيا . ما دام لهم هذا المسكن الذي يتسع لإيوائهم .

صحيح أنه لم يكن بالمسكن الذي يغبطون عليه . فهو ليس إلا حجرة من هذه الحجرات التي يقطن مثلها الكثيرون من سكان هذا الحي الفقراء أمثالهم . قد غرق بعضها تحت مستوى الأرض بحيث لا يستطيعون دخولها أو الخروج منها إلا مستعينين بهذه الدرجات المركومة في مدخلها من الحجارة غير المنحوتة . وفقدت كذلك كل أثر لأشعة الشمس التي تغمر بيوت السعداء ، فلا يكاد بعضهم يبصر بعضاً إلا في ضوء السراج الذي ما يكاد ينطفىء منها ليل نهار .. ولكنه مسكن على كل حال وهو فضلاً عن إيوائه لهم لا يزال يحمل في نظرهم طابع القداسة . لأنه تراث أبيهم الذي انحدر إليه من عدة أجداد . ولولا ذلك الميزاب الذي يحمل إليهم الأقذار من دار جيرانهم الأعلين لما وجدوا في أكنافه ما يطلق لسانهم بشيء من الشكوى قط .. ولسعدوا فيه أكثر من ذلك .. إذ يعلمون أنهم منه في نعمة لا تكفر . بالقياس إلى الكثيرين غيرهم من الذين لا يكادون يجدون ملجأ يضاهيه في حي (الخندق)...

ثم هم بعد ذلك كله قد صاروا إلى خير مما كانوا عليه أيام عائلهم من حيث المسكن نفسه . فلم يعد هناك من حمار يشاركهم المبيت في هذه الحجرة أيام الشتاء فيضطرون للخوض في روثه وبوله . ويضطرون بعد ذلك إلى التجلد على نهيقه كلما أيقظه صوت حمار آخر من البيوت المجاورة .. فقد خرج ذلك الحمار من ملكهم في اليوم التالي لخروج صاحبه من ملك الدنيا ، إذ لم يكن في هؤلاء الأطفال من يصلح لاستخدامه استئنافاً لحرفة أبيه ، فباعوه يومئذ كارهين ، لأنه لم يكن من اليسير عليهم أن يفارقوا المخلوق الذي كان لهم عوناً على الحياة طوال هذه السنوات.

وسرني من جديد أن أعلم ما انتهت إليه هذه المرأة بعد هاتيك الأيام الطويلة . فقد علمت من زوجتي أنها تعمل اليوم في بيع هذه البقايا من الأقمشة الأميركية ، التي طغت على أسواق البلاد بعد الحرب الثانية .. فهي تتناول كل يوم مقداراً من هذه القطع ، تتسلمها من أحد تجار المدينة فتدور بها على البيوت رائحة غادية ، مقابل عُمالة محدودة تأخذها على ما يتيسر لها بيعه .. وهي سعيدة بذلك العمل الذي يتيح لها أن تطعم أولادها وتكسوهم ما لم يحلموا به قط من جديد الثياب ، التي تستطيع أن توفرها لهم من عمالتها اليومية .. ولولا ما تلاقيه من عنت بعض الناس الذين يستدينون منها ثم يماطلونها لكان لديها وفر لا بأس به يتجاوز البضع عشرة من الليرات ..

* * *

وبقي عليّ أن أعلم قصة ابنتها (رشيدة) فإذا أنا أمام هذه المعضلة ، التي شدّ ما أضحكتني وأبكتني في وقت واحد :

لقد جاءت هذه المرأة بيتنا اليوم لا لتكتفي بعرض هذه السلع التي تحملها إلى البيوت ، بل لتتوسط زوجتي كي أكتب لها تعويذة ترد لابنتها رشيدة ما فقدته من عناية زوجها في هذه الأيام ..

لقد زُفت هذه الفتاة قبل ثلاث سنوات لشاب من جيراننا الأولين ، وقد شاركت أهل العريس يومئذ في احتفالهم لأعرب عن سروري بهذا الزواج الذي أفرح بيتين .. ومرت الفترة الأولى من حياة الزوجين وهما أسعد مَن أعرف . إذ كان الزوج واحداً من هؤلاء العمال الذين أكبر نشاطهم وحيويتهم ، يقضي أكثر يومه في عتالته ، ثم يعود إلى البيت لتستقبله زوجته بثوبه النظيف وبطعامه المعد ، فيشعر كأن حياته تتجدد كل يوم .. ولم تكن هي من اللواتي يعنيهن شأن الناس من الزينة والرغبة في الثياب ، فقد طبعت على الحرمان وألفته حتى أصبحت تحس لحياتها البسيطة المحدودة لذة لا تضاهى .

ثم مضت الأيام في طريقها فإذا بالزوج الشاب يتطور عمله. فمن حمال في (الكاراج) إلى مساعد في سيارة شحن . ثم إلى سائق سيارة يساعده معاون .. وكأنما وجد في وضعه الجديد ما يتطلب تغيراً في حياته كلها ، فهو لم يعد يستطيب من امرأته هذه البساطة التي يعهدها في مظهرها ، ولا ذلك الفتور الذي ألفه من لهجتها مما

يشبه البلادة ، فإذا هو يعيب عليها كل ذلك ، وإذا هو لا يجد لذة لهذا الطعام الذي تعده ولا قيمة لهذا الجهد الذي تبذله .. ويتسع هذا التغير حتى لا يجد شفاء لصدره إلا بضربها . فأصبحت تتلقى صفعاته كيفما اتفق لشيء أو لغير شيء . بعد أن كانت لأشهر خلت موضع الحسد من جاراتها اللواتي اعتدن أن يتلقين صفعات أزواجهن وشتائمهم صباح مساء !.

ويلاحظ الشاب على نفسه هذا التغير فلا يخفي دهشته منه ، وكثيراً ما يعتوره الندم إثر عاصف من ثوراته ، إذ يجد نفسه قد اندفع إلى إهانتها دون سبب . فيفضي إليها بندمه . ويكشف لها عن حيرته ، ويتمنى لو يستعيد أيامه الهانئات الماضيات ..

وقد حدث بالأمس أن عَنُف عليها مثل ذلك العنف . ثم عاوده الندم أيضاً فانزوى في حجرته يبكي ، ثم التفت إلى زوجته ليبوح لها بظنونه التي تساوره : إنه يرجح أن شريراً من الرجال أو النساء قد غبطه على حياته الوادعة . فأعد له تعويذة عند بعض الشيوخ . كان من أثرها هذا الاضطراب الذي يعانيه . ورغب إليها أن تستعين بأمها للحصول على كتابة معاكسة لدى أحد هؤلاء الشيوخ المتخصصين بكتابة التعاويذ !.

وكان من سخريات الأحداث أن وقع اختيار هذه الوالدة المسكينة عليّ !. إنها لم تجد خيراً مني لهذه المهمة ، فأنا ابن شيخ وابن أخي شيخ وحفيد أشياخ ، وأنا بعد ذلك متعلم أحسن استعمال القلم في كل ما يخطر على بالها ، ولديّ من هذه المكتبة الكبيرة

بنظرها . والتي تراها كلما دخلت بيتي . ما يسعفني بكل شيء .. ! !

وضحكت ضحكة كبيرة لهذا الخاطر . وسمعت الزائرة ضحكتي من الغرفة المجاورة . فاجترأتْ على مشاركة زوجتي بهذا الحديث وقالت : « إنني ألقي حملي كله عليك بعد الله .. وها أنذا قد أتيتك بكل ما يعوز (الحجاب) من الورق والبخور وغيره .. وهذه خصلة من شعر «هلال» وأخرى من شعر «رشيدة» وطرحت بين يدي خرقة فيها كل هذه الأشياء ..

وكان عبثاً أن أفهم جميلة وجهة نظري في هذه الشعوذات ، وكان مستحيلاً أن تفهم أن الأدب الذي عرفني به الناس ليس من شأنه أن أعمل في تسطير التمائم والتعاويذ وما إليهما من مسائل الحب والبغض !.. ذلك لأن الصورة الوحيدة التي تفهمها عن العلم والكتابة إنما هي محصورة بهذا الفن السحري ، الذي يتلاعب بقلوب الناس فيوجهها حيث شاء صاحبه من الإقبال أو الإعراض. ومن الجنون أو العقل .

ورجعت إلى نفسي قليلا لأفكر في هذا المأزق ، وانتهيت إلى أن أتساءل : « ما دام هلال نفسه قد آمن بذلك فلمَ لا أساعده عليه ؟.. أليس هذا الايمان وحده كافياً ليجعل من تعويذتي إيحاءً نافعاً ؟ ! ».

وذكرتني كلمة «الايحاء» بما أعلمه عن مؤثرات الوهم فقلت : لعلي أكون سبباً في إزالة هذا الاضطراب النفسي الذي يفترس الرجل ! .»

وخيل إليّ أنني مدعو بقوة الواجب إلى الاستجابة لهذه الثقة الخرافية.. ما دام ذلك هو السبيل الوحيدة لشفاء هذه النفوس المكلومة ..

ورأيتني مصمماً على أن أمثل دور المشعوذ لأول مرة في حياتي .

* * *

ودار دولاب الزمن مرة أخرى ، وأحسست برغبة ملحة في استطلاع الأنباء عن تلك الأسرة ، وكانت جميلة قد انقطعت عن بيتنا منذ شهر فأرسلت بطلبها ، وسرعان ما علمت كل شيء :

لقد حمل الزوج لفافة الورق البيضاء التي أعددتها له ، وشرب الماء الذي أرسلته إليه ، وكذلك فعلت زوجته بما قدمته لها.. ولكن جهودي كلها قد انتهت إلى الإخفاق المخجل !

إن الاضطراب الذي حاولت استئصاله بهذا الايحاء قد مضى في تفاقمه، حتى لم يعد الزوج يطيق رؤية زوجه في بيته،فإذا هو يثور بها على حين غرة ليخرجها إلى بيت أمها في ساعة متأخرة من الليل .. وها هي ذي مع ولديها الآخرين تزيد في أعباء جدتهما المسكينة عبئاً آخر يوشك أن يحطم ما تبقى لها من قوة ! .

صديقي ابوطنوس

لا أزال أذكر جيداً يوم عرفته لأول مرة . لقد جاءني أصيل ذلك اليوم وفي يده حقيبة صغيرة من حقائب السماكين ، ولم يكن فيها سوى صغيرين من الحنكليس . وعلى كتفه قصبة طويلة ربط في أعلاها خيط ولف سائره على جسمها حتى انتهى الشص إلى يده .

جاء ليعرض علي أن أشتري منه تلك الغنيمة ، وكأنه خشي أن أعتذر عن ذلك بفوات الوقت . وهو يعلم أن السمك لايشترى إلا في أول النهار فقال : لا نختلف على الثمن ، المهم أن نحصل على خبزنا هذه الليلة .»

وأهمني ذكر الخبز فلم أجد بدا من أخذ ما معه فنقدته ثمناً قليلاً ،ورغبت إليه أن يأتيني بمثل ذلك كلما رأى كساداً في سوقه وحاجة إلى خبزه . ومنذ ذلك اليوم اتصل حبل اللقاء بيني وبينه فما أذكر أنه انقطع عن زيارتي أو انقطعت عن لقائه طوال العام الذي قضيته في تجارتي الصغيرة بذلك الحانوت .

وكنت أترقب زورته في مثل تلك الساعة من كل مساء إذ

يعود من رحلته اليومية في الشاطىء ليؤمن حاجة بنته الوحيدة التي تلبث بانتظاره في منزلها المتواضع . فإذا ما اطمأن إلى توفر هذه الحاجة شركها في الطعام ، ثم عاد من حيث أتى ليستأنف عمله في استعمال قصبته أو مراقبة خيوطه ، التي يبيتها في البحر على مبعدة من الشاطىء ، ولا ينسى أن يمر بي في أثناء ذلك ليستريح قليلا على عتبة الحانوت ، اسمع منه حكاية يومه ، ويسمع مني حكاية يومي ، حتى يقدم الغروب فأغلق حانوتي وأرافقه في طريقه حتى نفترق هو إلى شاطئه وأنا إلى البيت .

على أنني كثيراً ما كنت أفتقد قدومه في موعده . فأحس انقباضا ثم دافعا يغريني بالبحث عنه ، فأعمد إلى لقائه حيث اتخذ مقره على (مدرج العيون) فأشركه في خلوته ، حتى أكون بحاجة إلى النوم فأودعه لألقاه في اليوم التالي هنا أو هناك .

ولم تكن خلواتنا هذه لتثير اهتمام أحد من الذين يعرفونني ، فهم قد علموا بي هذا الشذوذ الذي يحملني على ما لا يألفون من معاشرة هؤلاء المطرودين من المجتمع . وطالما قد رأوني أتربع على التراب في مجالس أولئك الرحالين من (النوَر)حيث يخيمون في أطراف المدينة ، فيهزؤون من شذوذي ما شاء لهم فضولهم ، ثم ينصرفون إلى غايتهم من اللهو والعبث ، حتى ألفوا منظري هذا وعاد لديهم شيئاً مكروراً لا يستحق التفاتا .

وكنت بدوري أجد في هذا الإهمال منهم ما يتيح لي الاستمتاع بلذائذ هذا الشذوذ ، فلا أتحرج أن يشهدوني في مثل هذه المجالس بعد ذلك سواء في البرية أو الشاطىء أو الحانوت .

وفي الحق كنت أجد في مجلس (أبو طنوس) ما يستحق مني هذه العناية، إذ كنت أرى خلف هاتيك النظرات العميقةالمركزة، يرسلها إليّ من تحت ذينك الحاجبين الكثيفين الأشمطين . ومن خلال الغضون المتهدلة في وجهه الأثري.. كنت أرى من خلال ذلك كله صورة أخرى غير التي عرفها الناس عنه.. صورة ما أراني قادراً على تحديدها ، ولعل ذلك عائد إلى ما يرافق مظهره هذا من حديث لم يتح لأحد غيري أن يعيه كما وعيته ، وأن يتأثر به كما تأثرت . فقد كان لحديث (ابو طنوس) وقع غريب في نفسي لا تتسع له خواطر الناس الذين يغفلون حقائق الحياة ، ليشغلوا عقولهم بالظواهر المغرية ، ولهم عذرهم في ذلك فليس مثل هذا الصياد الهرم ممن يمكن أن يكونوا مظنة لعلم . وهم يعرفون أنه ما دخل مدرسة قط ، وقد يظنون أنه ما خبر شيئاً من الحياة خارج حدود هذه الحرفة التي قطع نفسه لها منذ عشرين سنة . أما أنا فقد كنت أرى في هذا الهيكل الضئيل المتهدم مثل الذي يراه خبير الآثار حين تقع في يده قطعة من العاديات . قد لا يكون في ظاهرها سوى بقايا التراب الذي تراكم عليها خلال القرون ، ولكنه وحده يستطيع أن يقرأ في خطوطها الطامسة ما يصله بحقائق التاريخ المجهول .

لقد طالما جلست إليه بين هذه الصخور على شاطىء (المدرج) وقد طوى أطراف سراويله الأصفر البالي إلى ركبتيه ، مرسلاً ساقيه الهزيلتين فوق الرمل . كقطعتين مهملتين من الحطب الجاف ، وأطلق عينيه صوب البحر في هدوء عميق كعمق ذلك السطح

الأزرق الممتد إلى خط الأفق . وغرق وجهه المعروق في سحابة لطيفة من دخان غليونه المثبت في فمه الأدرد .

وأرهف سمعي لألتقط الهمس الشاعر . فإذا هو يملأ نفسي بتلك المواعظ الساحرة . تحمل الخيال إلى عالم غير عالم الناس .. عالم تتلاقى في جوائه أسرار الحياة كلها في كلمات قلائل . لقد طالما سمعته يعود إلي من تلك الشطحات بمثل هذه الكلمات : «مساكين هؤلاء الناس الذين يرون المال كل شيء في هذه الدنيا ! أنهم يفسدون أنفسهم ويفسدون غيرهم بهذه الأفكار السوداء التي تمتل الضمير ...»

وحقيقة لم يكن يحسن التعبير بمثل هذه الألفاظ . ولكني هكذا كنت أفهمها عنه . أفهمها حينا عن طريق الإشارات والإنفعالات . وحينا عن طريق الحروف والكلمات . ومن يدري فقد يكون فهمي لها متأتيا عن ضرب من الامتزاج الروحي الذي ينقل أفكار امرىء إلى آخر بوسيلة خفية لا يستطاع تحديدها .

*

وأصغيت لأبو طنوس ذات مساء استمع إلى هذا الحديث الذي كشف لي عن ذات نفسه :

قال لي صاحبي . وقد استوى في مجلسه على عتبة الحانوت ، فأسند ظهره إلى ركن الباب . وطوى إحدى ساقيه ليريح عليهما يده بعد أن أرسل تنهدة طويلة :

« أرأيت إلى هذا الشاب الذي بعته آنفاً جوربا من الحرير ؟.

لقد مرَّ بي كما يمر المركب الملكي بالحشرة التافهة تزحف بين قدميه دون أن يشعر .. لا تستغرب إذا قلت لك إن هذا الشاب هو ابن أخي . وإن هذا السر الذي يرفع أنفه إلى أعلى إنما هو بقية من القوة التي أفنيت شبابي كله في ادخارها لهذه الشيخوخة .

لقد رحلت مع الفوج الأول من المهاجرين إلى البرازيل ، يوم كانت هذه الهجرة مرتع الآمال بالثروات الكبيرة ، وكان الراحلون فيها رواد الفتح لمن ذهب بعدهم في طلب المال .

ولا تتصور المشاق التي يتكبدها المهاجر أول عهده ، إذ تكون غاية مأمله محدودة بالحصول على القوت ينتزعه مغموسا بدم قلبه ، يبذله عاملا في المصنع . أو خادما يحمل على رأسه بضائع التجار ، ينتقل بها وراءهم في القرى والمزارع وبين المساكن . حتى يستكمل عدته للعمل المستقل ، من دربة على المخاطبة وألفة لعادات القوم .

وتيسر لي بعد سنوات من الجهاد أن أستقل بحانوت صغير ، أبيع فيه لوازم الزينة ، فيفتح لي سبيل التوفيق المطرد . حتى رأيتني قادراً على إرسال بعض المال الذي يفيض عن حاجات الحانوت إلى الوطن .

وكان لا يبرح خيالي ذلك المأمل الصغير الذي حملته في صدري يوم تركت مسقط رأسي . وهو أن يكون لي فيه منزل من هذه المنازل التي يحلم بها أوساط الناس ، وإلى جانبه بستان مشجر بالزيتون أو التين يكفيني وأهلي مئونة الحياة حين أصير

إلى هذه الشيخوخة . ولم يكن لي خير من أخي أعتمده لهذه الغاية ، فجعلت أبعث إليه بهذا المال وجعل هو يشجعني على هذا العمـــل . ويحضني على الإكثار من الإرسال ليشتري لي بذلك العقار بعد العقار .

ولم أجد ضرورة لتوسيع عملي فاكتفيت بهذا الحانوت الصغير ، ومضيت في تحويل الفائض مما لدي إلى الوطن .. ولم لا أفعل ذلك ما دمت غير آمل بالبقاء إلى الأبد في المهجر . وما دمت إنما أعمل لزوجتي وبنتي اللتين لا غاية لي إلا أن أعيش معهما بقيـــة عمري !

وتركت لسواي من الرفاق أن يوسعوا أعمالهم . ويستزيدوا من رفاههم ؛ وحرمت نفسي كل شيء في سبيل هذه الغاية .

ولما نشبت الحرب الكبرى الأولى تطوعت في الجيش الأميركي الذاهب إلى أوروبة ، بغية أن يتاح لي الوصول إلى موطني من هناك ، وتم لي ما تمنيته وجئت بلدي عقيب الهدنة ، وكنت أتوقع أن أجد لي فيها البيوت والبساتين ، وأن أجد زوجتي وبنتي في نعيم تغبطان عليه .. ولكن .. أتدري ماذا وجدت !؟ لقد وجدت زوجتي وقد طواها الجوع فاستراحت في قبرها قبل سنتين ، ووجدت ابنتي وقد لجأت إلى الخدمة عند إحدى الأسر الغنية لتضمن لنفسها الكفاف ! ..

ولقيت أخي لأسأله عن مصير أموالي فأنكر أن يكون قد تلقى مني أي درهم ، وكان يعالج مرضاً شديداً فقلت : أمهله

حتى يستعيد قوته، عسى أن يراجع نفسه خلال ذلك، وعسى أن يخشى لقاء ربه وهو مصر على إنكار حقوقي .. ولكن أخي ما لبث أن ترك هذه الدنيا كما لقيته ، لم يزده المرض والنزع إلا تصميماً !

ورجعت بعد ذلك إلى أولاده رجاء أن يكونوا خيراً من أبيهم، فيعوضوا علي قسماً من حقي بشيء من هذه الأملاك الكبيرة من الأبنية والأرضين التي خلفها وراءه .. ولكن عبثاً فما ازدادوا إلا إصراراً وعناداً واستمسا كا بخطة الراحل .

ولقد كانت الصدمة شديدة على نفسي بادىء الأمر ، بيد أن شيئاً غريباً ما لبث أن استولى عليّ بعد قليل ، فإذا أنا لا أقيم وزناً لهذه الدنيا التي يتكالب عليها الناس، حتى تصل بأحدهم إلى أن تموت امرأة أخيه جوعاً دون أن يمد يده اليها بمعونة من مالها، وحتى تصل به إلى أن يحرم أخاه من حق دفع ثمنه زهرة شبابه ودم قلبه !. يقدم على كل ذلك من أجل أن يؤمن لأبنائه من بعده مظهر الثروة التي لن تزيده إلا خسارا يوم الدينونة .

أجل يا صديقي..لقد خرجت يومئذ من هذه المحنة خاسراً شبابي ومالي ، خرجت منها وقد سد في وجهي كل سبيل إلى الحياة ثم لم أجد مكاناً يؤويني إلا هذا البحر ، الذي اتخذته صديقي الوحيد منذ ذلك اليوم ، ولقد لجأت إليه أول ما فعلت هرباً من تلك الأخيلة التي جعلت تقض مضجعي وتلاحقني أينما ذهبت ، ولكني ما لبثت أن وجدت في سعته غير المتناهية ، وفي مظاهره المتغيرة أبداً ، وفي حياة أسماكه التي يطارد كبيرها صغيرها ... وجدت في هذا وذاك ما طمس على كل هاتيك الأشباح التي

اتهمني الناس من أجلها بالجنون ، فإذا أنا أنعم من راحة النفس بما لم يتيسر شيء منه لذلك الأخ المسكين ، ولا لغيره من عبيد الحياة !.

وثق يا صديقي اني لا أعدو الحقيقية إذا قلت لك : إنني أجدني الآن أغنى مما كنت قبل هذه المحنة ، وإنني أحس في عري هاتين الساقين أسعد مما يحسه هذا الشاب الشامخ الأنف عندما ترتدي قدماه ذلك الجورب الحريري . ودعني أهمس في أذنك : إن أسعد كلمة أسمعها من الناس تلك التي يقذفني بها أولئك الأطفال أينما سرت من شوارع هذا البلد حين يسمونني (المجنون) أو (عبد البحر).

أليس جنوني خيراً من عقول هؤلاء المخدوعين عن أنفسهم ؟. أو ليست عبوديتي أثمن من الحرية التي يتخيلها عبيد الشهوات ؟!.

*

وانطوت على تلك الأيام ستة من الأعوام ، وكاد الزمن ينسيني خيال أبو طنوس فضلاً عن ذكره ، حتى كان صباح أمس إذ سمعت أحد الرفاق يؤنب ولده على تشرده في الشواطىء . ولم يجد تعبيراً أشد تقريعاً من قوله له : أتريد أن تعيد للناس من جديد حياة أبو طنوس ؟ .

وتذكرت ساعتئذ ذلك الصديق الراحل ، وتمثلت خيال تلك المنيهات الماتعات ...

عجلة القدر

كان من المدهش حقاً أن يتكشف لي صديقي عن مثل الخبيئة الهائلة التي انطوت عليها نفسه . فقد عرفت هذا الرجل منذ عشر سنوات ، فوجدت فيه الضالة التي طالما نشدتها من خلق كريم وقلب رحيم وذوق سليم . ثم مضت الأيام تتقلب على صداقتنا ، فما ازدادت إلا قوة ، وما ازدادت مزاياه في نظري إلا تبلوراً وثباتاً . فلما رفع لي حجاب تلك السريرة شعرت بصدمة رجفت أعصابي . فلم يكن من اليسير أن تقع على بذور الجريمة في مثل هذه النفس الكريمة ! .

وكنا ساعتئذ في حديث عن مأساة أيار وفظائع الفرنسيين في دمشق . وقد انتهينا إلى الكلام عن فاجعة قلعتها وفرار سجنائها ، ثم استسلام بعضهم إلى الحكومة واختفاء البعض الآخر ، وما ندري السبب الذي وقف بنا على ذكر واحدة بعينها من السجناء . فقد رأيتني مدفوعاً بذكرها إلى استعادة ماضٍ دار عليه ما يقرب من عشرين سنة . أتساءل عن ذلك السر الذي حدا هذه المرأة يومذاك إلى التآمر على حياة رجل كان بنفسه وذكائه وإخلاصه موضع

الثقة لشعب بأسره .. وكان واحداً من حفنة رجال يحملون على كواهلهم بناء هذا المستقبل الذي نعيشه اليوم .

وكنت كلما توغلت في تذكر تلك المؤامرة أجدني أشد إغراقاً في الحيرة من أن يصل سلطان الشهوات ببعض الناس إلى حد الجناية على أقرب الناس وأكرم الناس !.. أليس من العجب أن تنقلب الزوجة ـ وهي عزاء زوجها وقرينة نفسه ومختزن سره ـ قاتلة لهذا الزوج من أجل رغبة دنيئة في رجل آخر ، قد يكون أقرب إلى صورة الحلم الذي يستغرقها ـ ولكنها تدرك أنه أحقر الرجال بجانب تلك العبقرية التي تجعل من رجلها محط إعجاب الملايين من الرجال ! .

وما كنت أحسبني إلا منصفاً كل الإنصاف في هذه الحيرة وهذا الاستنكار لتلك الجريمة ـ لذلك كانت دهشتي شديدة عندما رأيت صاحبي ينحاز إلى جانب الدفاع عن المرأة ، فيقيم لي أكداساً من الأسباب المخففة ، التي تجعل من هذه الجريمة في نظره أمراً عادياً لا سبيل إلى استغرابه ، وكانت حججه قائمة على تعليل الغريزه الجنسية وأثرها في حياة الفرد والجماعة ـ وكان لا يفتأ يحيلني إلى الشواهد الماثلة على مسرح الوجود في كل زمان ومكان ليثبت لي علمياً ـ بزعمه ، أن هذه الغريزة هي المؤثر الأكبر في نفوس الناس توجهها صُعداً أو نزولاً ، وأن الارادة والعقل هما آخر العوامل الفاعلة في هذا المعترك !

وبلغ الجدل بيننا حداً لا ينفع في شأنه الرأي والنظريات المجردة ـ فكان ذلك باعثاً له على أن يفضي الي بهذا السر الذي

ما برح يحجبه في أعماق قلبه منذ زمن بعيد ، ليقيم على رأيه الدليل العملي الذي لا ينقض .

* * *

قال صاحبي : وكان ذلك قبل سنوات تقارب العشرين ، يوم هبطت بيروت في عمل تجاري ، ومعي زوجتي وهي حامل بالولد الأول ، وقد نزلنا ضيوفاً على بعض معارفنا . ولن أطيل عليك بذكر ما لا قيمة له ، فحسبك أن تعلم انني تعرفت في ذلك البيت جارة حسناء من اللواتي تتعطل بأزاء سحرهن رقية الإرادة ، لا سيما إذا كانت إرادة طفلة كالتي كنت أحملها يومذاك ، إذ كان قلبي لا يزال مفتوحاً للدنيا لم تبن له السن الحصن الذي يعصمه من غزوات العيون ... ولعلك تعلم أن القلب الذي هذا شأنه قد يفقد عزيمته أمام النظرة الأولى ، فكيف بالنظرة تتلوها النظرات ، وكيف بالابتسامة تعقبها الابتسامات ؟

وكانت الخلطة قد جرأتني على استثبات النظر . فرأيتني أستسلم إلى دوافع الهوى الجديد ، فأهمل الأمر الذي أتيت بيروت من أجله ، فأجعل من رحلتي التجارية نزهة صيفية أبذل في تلاوينها كل ما تصل اليه يدي من النقود ، غير عابىء بما وراء ذلك من سوء العاقبة . وما كانت زوجتي لترضى عن ذلك التصرف برغم ما تذوقته من حلاوة هذه النزهة ، وبرغم كونها لا تزال مثلي في السن التي يُظن أنها تلهيها عن الاستغراق في شئون المستقبل ، فكأنما الفطرة قد أعدتها خاصة لمهمة البيت وحدها ، فهي ، مع أنها لم تعرف بعد طعم الأمومة ، ولم تختلج أحشاؤها بغير

هذا الحنين . تفكر بعقل المرأة العجوز التي امتلأ البيت بأولادها وأحفادها فلا متسع عندها للتفكير بغيرهم . ولا شاغل لها إلا إعداد ما يعوزهم من سلاح لمعركة الدنيا .. لذلك صار همها الأكبر أن تعود بي إلى البيت قبل أن يذهب التهور بالبقية الباقية من النقود .

وما أدري فلعلها قد رمت إلى أبعد من ذلك . فأرادت أن تحتفظ بالبقية الباقية من حقها في نفسي . وما كان بد من الخضوع لإلحاحها ، فعدنا إلى بلدنا ومعنا جزء من السلع التي ذهبنا من أجلها !..

ولكن ما أعمق ذلك الفراغ الذي أناخ على دنياي بهذه الفرقة ! فبعد يومين اثنين وجدتني أعجز من أن أركن إلى عملي ، فـإذا أنا أعكم حقيبتي من جديد لأكون بعد ساعات قلائل في بيروت ، وما كان بالعسير أن يتصل حبل الماضي القريب . فقد كنا أعددنا كل شيء لمثل تلك الساعة . وهناك عجوز من أقرباء الحسناء رضيت أن تكون واسطة هذا اللقاء يوم أشاء . فما هي إلا أن رفعت إليها نبأ قدومي حتى كنا نجوب معاً شوارع بيروت !

وأراني قد نسيت أن أقص عليك أن حسناءنا كانت ذات زوج . وأنها كانت مغمورة من كنوزه بنعيم يحسدها عليه الكثيرات ، ولكن موضع العيب في هذا الزوج أنه شيخ متهدم يتخذ من عصاه رجلاً ثالثة ، فهو لا يكاد يدع البيت إلا في النادر ، وكان يستشعر هذا الفرق بينه وبين زوجته فيبيح لها

مغادرة البيت لأي سبب تبتدعه . وكانت هي لا تعدم الوسيلة التي تقنعه بإخلاصها له ورضاها عن حياتها معه . استبقاء لهذه النعمة وطمعاً بما يفيئه عليها القدر . الذي تتربصه به ساعة بعد ساعة ، من خير قمين أن يفتح لها باباً جديداً إلى أحلامها الموؤده !.

ولكن للصبر يا صديقي حدا ينتهي عنده . لا سيما إذا كان صبراً على مجهول لا تعرف متى يكون ، وليس بالسهل المستساغ أن ترى كهذا الشباب الريان الساحر ينطوي باختياره وراءقضبان من هذه الشيخوخة الباردة ، في انتظار أمل بعيد ربما لا يتحقق قبل أن يذهب الزمن بالجمال العابر ، فيصير السجن المؤقت إلى سجن أبدي لا مطمع وراءه بالحرية !

وما أحسبك بعد هذا بمستغرب أن ينتهي اليأس بهذه الأسيرة إلى التفكير بالجريمة استعجالاً للمصير المرتقب ... ولكنك قد تستغرب أن يكون رفيقك هذا هو شريكها في الجريمة !

أجل أيها الصديق .. لقد تداولنا الرأي في الوسيلة التي تنقذنا من ظل هذا الشيخ ، واتفقنا أخيراً على أن ندس له السم في حبوب الدواء ، بالطريقة نفسها التي عمد اليها قتلة « فوزي الغزي » . وكان عليَّ أنا أن أقوم بتحضير السم ، وعليها هي أن تقوم بإيصاله إلى جوفه .

ولكن .. مهلاً .. إن صاحبك لم يفعل شيئاً من ذلك ، ولا تحسبنّ أنه امتنع عنه بإرادته ، فذلك كان آخر ما يمكن أن يحدث لولا أن القدر أدار العجلة عن ذلك الطريق المقرر في اللحظة الأخيرة .

* * *

وكانت العجَلة يومذاك في قبضة دجال كبير استطاع أن يشغل بيروت كلها ، حين زعم أن طوفاناً سيطغى على تلك المدينة فيذهب منها بالحياة والأحياء جميعاً ، ولم يكن النبأ بجد ذاته ليستحق اهتمام الناس ، أو يستدعي تصديق العقلاء ، ولكن عقليّة الجمهور من العامة ، وما رافق تلك الشعوذة من ألوان الدعاية في الصحف والمنشورات ، قد تركت أثرها في سواد السكان ، فمضوا يتلمسون الوسيلة لتفادي المصير الرهيب ، وكثير منهم غادر العاصمة إلى أعالي الجبال فراراً بأرواحهم وأموالهم !. ولا حاجة للقول بأنني كنت بين العقلاء الذين هزئوا بتلك الأضلولة ، فلم أذهل عن الموعد الذي ضربناه لتنفيذ الجريمة ، وما كان ذلك بوازع المنطق ... كلا وإنما كان بقوة أخرى لا أدري ماذا يجب أن أسميها ... بل لا أكتمك أنني وجدت في تلك الفوضى أفضل فرصة للغرض الذي أزمعته ، ولكن ... ما الحيلة !.. لقد كان حب الحياة في نفس الشيخ أشد قوة من ذلك العزم الذي في نفسي ، فما هو إلا أن أزفت الساعة حتى علمت أن الحسناء قد تركت بيروت مع زوجها إلى حيث لا أعلم !.

ولم يعد من مسوغ للبقاء في ذلك المضطرب المخيف ، فتركت بيروت بدوري ، ثم شاء الله أن يصرفني عن ذلك الماضي . فلم تزل تتراكم عليه حجب الزمان حتى كنت أنت أول كاشف له بعد هذا الطويل من السنين ، وبعد أن ذهب الأجل المقدور بالشيخ المسكين وزوجته الحسناء دون أن يغمس يدي في دمه البريء.

وقد تصدقني إذا قلت لك انني أنا صديقك الذي تستهويك مني هذه المثالية الخلقية ، وهذه الرحمة التي يفيض بها قلبي على كل شيء . قد كدت أكون ذات يوم شبيهاً بتلك المرأة التي تستنكر جريمتها ، بل كدت أكون مكرهاً على مثل مصيرها من ذلك السجن ، هذا فيما لو أسعفني الأجل فحاد برقبتي عن حبل المشنقة !.

ومن يدري فلعل تلك المرأة كانت بحاجة إلى كذبة كبيرة تصرفها عن تلك الجريمة كما صرفتني ، فيكون حظها من الناس مثل الذي أتمتع به من تقديرك وإعجابك وإجلالك !

أجل .. أيها الصديق ! إنني ككل مخلوق آخر أنطوي على بذور الجريمة ، ولكني مدين في النجاة من شرها إلى حكمة القدر ، الذي أنقذني منها بشعوذة دجال ! .

بين موعدين

كان لا بد لي أن أمسك عن المطالعة ريثما أتبين صاحب هذا الظل الذي وقف على كتابي ، فقد خيل إليّ أن صديقاً قد عجل مثلي إلى هذا المجلس الذي ألفنا التلاقي فيه كل مساء تحت هذه الظلة المنعزلة من مقهى « المنشية »

ولكن الوجه الذي طالعني لم يكن من الوجوه التي توقعتها ، لذلك كان الحس الذي أثاره في نفسي من نوع آخر لم ألبث أن وجدتني منصرفاً إلى استيحائه في غير وعي مني .

كان الوجه وجه «جرجي...» وهو لم يقف بإزاء منضدتي ليجلس إليّ أو ليشغلني بنفسه عما أنا فيه ، ذلك لأنه قد لا يعرفني البتة ، وما شأنه بي ليعرفني وأنا من واد وهو من واد !..

وكان كل علمي عن هذا الفتى متأتياً مما أسمعه من الناس الذين يرمونه بالجنون ، ولعله لم يكن مجنوناً كما يزعمون ، ولكنه

مصاب بالصراع ينتابه بين الفينة والفينة ، فإذا هو ملقى إلى الأرض يضرب بيديه ورجليه . وقد غمر الزبد شدقيه وغامت عيناه وراء غلالة رهيبة من الدم . وكثيراً ما تتابع نوباته هذه فلا يكاد يصحو من إحداها حتى تسلمه إلى الأخرى .. ولذلك تراه أبداً في شبه ذهول عما يحيط به .. يمر بك كما يمر الطيف بخيال النائم لا تكاد تحس له وجوداً ولا تسمع له ركزاً . ومن هنا استحق الفتى لقب المجنون لأنه يعيش في جو آخر غير الذي يعيش فيه الناس ..

ووقف «جرجي» إزاء منضدتي ينفض بعينيه أنحاء المقهى كأنه يفتش عن شيء عزيز ضل سبيله أو أفلت من يده دون أن يعين له مكاناً ، وكأنما يئس من العثور بهذا الشيء فارتد على عقبيه يتطلبه في موضع آخر .

وسمعت شاباً في الظلة المقابلة يقول لرفيقه : « أرأيت ؟.. إنه يبحث عن زميله خالد .. »

وكان اسم هذا الفتى كافياً لصرفي عن العودة إلى المطالعة ، فلم ألبث أن طويت الكتاب لأغرق في هذه الغمرة من المشاعر المختلطة التي أيقظها في صدري كلا الفتيين .

* *

ان مأساة خالد هذا لتستحق أن تبعثني على التأمل والتفكير .. لقد عرفته هو الآخر معرفة محدودة ، فهو وحيد أمه وبقيةُ أبيه الذي أذكر انه توفي قبل عشرين سنة يوم كان ابنه هذا طفلاً في

المهد . ثم عرفته واحداً من هؤلاء الفتيان الذين يقتلون شبابهم في بطالة مطبقة لا يجدون منصرفاً عنها في عمل ما . بعد أن سُدت جره العمل دون أمثاله من الذين لا يملكون مالاً ولا عقاراً . سوى هذه المعونة اليسيرة يتلقاها من بعض أقربائه .. ولكني عرفته متميزاً وعن كثير من أولئك الفتيان بهدوئه العميق. وصمته الطويل ، وبعده عن هذه المزالق التي ينحدر اليها الأكثرون ..

ولقد آلمني أن يصاب هذا الفتى بما انتشرعنه مؤخراً من صدمة عقلية أودت بأمنه وأمن والدته ، وكان ذلك يوم نُشرت أسماء الناجحين في امتحان الشرطة فلم يجد لاسمه موضعاً بينها ، وهو الذي كان على ثقة بأن يكون اسمه في رأس القائمة .

وكانت الصدمة عنيفة مزلزلة لم تتحملها أعصابه الضعيفة ، فإذا هو يمزق ثيابه ثم يحاول الخروج عارياً إلى الأسواق ..

وبالحقيقة لم يكن أمله بنجاحه من قبيل الوهم ، فقد كان خيراً من أكثر الذين شاركوه في هذا الامتحان ، لأنه لا يزال محتفظاً ببقية من مبادىء التعليم الماضي ، أيام كان من المتفوقين في الصفوف الابتدائية التي لم يستطع أن يتم دراسته فيها ، إذ اضطره الفقر إلى مغادرة الفصل الخامس قبل فحص الشهادة بقليل ؛ ولم تكن مواد الامتحان لتلك الوظيفة الصغيرة مما يتجاوز حدود طاقته ، فلما خرج منه كان مطمئناً إلى ما عمل ، حتى لم يخف عن رفاقه ارتياحه وأمله الوثيق بالحصول على النجاح ثم الوظيفة ، التي ستنقذه من دوامة البطالة .

ولقد كان فعلاً من الناجحين في ذلك الامتحان ، وكان اسمه من بين الأسماء التي وزعت عليها وظائف الشرطة يومئذ ، ولكن شاء الله أن يغفل منضد الأحرف عن اسمه أثناء نشر القائمة في إحدى الصحف المحلية ، فكانت غلطة زلزلت أعصابه وأفقدته لبه ، ثم لم ينفعه بعد ذلك أن يأتي اسمه في مكانه من القائمة حين قرأها الناس في الصحف الأخرى .. ذلك لأن الإنسان الوحيد الذي كان بحاجة إلى قراءة هذا الاسم هناك قد أصبح في غير هذا العالم !..

وخمد بعض ثورة الكارثة أخيراً ، واستطاعت الجهود هذه المرة أن تؤتي ثمرها ، فاسترد الفتى بعض هدوئه المسلوب ورضي أن يستر جسده ، فلا يخرج عارياً إلى الأسواق .

وقد أُتيح لي أن أشهد المسكين أمس ، وقد ارتدى ثوبه القديم في وضع مشوش لا أثر فيه لأناقة الماضي ، وحمل بيمينه قبعة قديمة يلوح بها هبوطاً وصعوداً .. والى جانبه هذا الفتى الآخر «جرجي» الذي لم أذكر انني رأيته معه قط قبل تلك الساعة .. ومع ذلك فقد كان في إطراقة كل منهما أثناء ذلك ما ينبيء أنه في شغل عن رفيقه وعن الناس جميعاً بشيء غير منظور !..

وكانت مفاجأة للمارة حين شهدوا «جرجي» يهوي على مقدم رأسه إلى الأرض ، وقد جحظت عيناه كعادته حين تعتريه نوبته ، وجعل يفحص بيديه ورجليه فيثير الغبار في وجوههم وثيابهم ؛ وكان منظراً محزناً عندما رأيت خالداً هذا يجلس على حافة

الطريق ليحتضن رفيقه بكل ما في ساعديه الهزيلين من قوة . وقد انتثر الزبد المخيف على فم صاحبه وجعل يرسل من خلاله خواراً مخيفاً كخوار الثور الهائج ..

..وكنت غارقاً في هذه الذكريات الحية عندما فوجئت بصوت رفيقي يحمل إليّ التحية ، ثم ما لبث مجلسنا أن استرد حركته المألوفة كل مساء ، فنسيت كتابي ونسيت معه هذا الفتى الذي جاء آنفاً يفتش عن زميله ؟.

*

وكان شعاع الغروب لا يزال متشبثاً برؤوس الحور المنتصب في أطراف الحديقة ، عندما لامس مسمعي رنين الناقوس البعيد يرسل دقاته المتقطعة من صومعة الكنيسة ، فتنطلق ألسنة رفاقي وألسنة الآخرين من زوار المقهى بهذا التساؤل : « من الميت ؟.».

وعرفنا أخيراً أن الميت «جرجي» قد أدركه الغرق ، إذ فاجأته الصرعة وهو يسبح على مقربة من الشاطىء .

ورأيت في تلك اللحظة وجه « خالد » يطل عليّ من خلل الأعشاب القائمة في الجهة المقابلة من المقهى . وقد ارتدى ثوبه القديم في وضع مشوش وحمل بيمينه قبعته المعهودة ..

وأبصرته يقف على مقربة من مجلسي ، وفي المكان نفسه الذي أبصرت فيه صاحبه قبل ساعتين ... ثم مضى يدير عينيه في حديقة المقهى كأنه يفتش عن شيء عزيز ضل سبيله أو أفلت من

يده .. ثم لم يلبث أن ارتد على عقبيه من حيث أتى ..

وخُيلَ إليّ أن الفتى كان على موعد مع صاحبه، ولكن.. أخطأه الحظ هذه المرة كما أخطأه يوم لم يجد اسمه في قائمة الناجحين ..!

دمعة وابتسامة

حدث ذلك حوالي الثامنة صباحاً، وكنت يومئذ في طريقي إلى عملي في (الإعاشة) عندما وقعت عيني على ذلك المنظر الكئيب ...

لقد رأيته مقعيا على صخرة فوق حفرة الأقذار التي تنصب من دارهم ، وحوله بضعة من أطفال الحي في ما دون سنه بين الثالثة والسابعة ، وعلى جانبيه طائفة من عيدان قصب السكر قد أسندت إلى جدار البيت في مثل حال هؤلاء الصغار ، فهي بين طويل يضاهي المتر وقصير لا يتجاوز ثلاثة أشبار .

وكان بعض هؤلاء الأطفال مطبقا يديه على قطع من الخبز ، وآخرون على بعض النقود يقدمون من هذا وذاك إلى الغلام صاحب العيدان ، فيضعها في علبة قديمة من الصفيح قائمة بين يديه ، ليعطيهم مقابلها بعض هذه العيدان المنصوبة على الجدار ، حين كان الآخرون من الأطفال يقفون شاخصين إلى عملية البيع والشراء ، يرقبون أيدي زملائهم وهي تقصف الأعواد ليترامو على ما يقذفون من عقدها غير الصالحة إلى الأرض ، فإذا هم متزاحمون فوقها لا يظفر بها إلا أقواهم ساعداً وأشدهم إقداما !

ولم يعنني ما كنت اشهده من ذلك الحي الذي عهدت غرائبه منذ أربعين سنة ، اذ كانت عيناي منصرفتين إلى وجه ذاك الغلام البائع . وهو محتب في مكانه من حافة الحفرة . يكاد لا يستطيع حراكاً الاحين يغلبه السعال . فيتخلص منه بدفعة من بصاق ملون ينثره بين يديه بجانب علبته المحشوة بالخبز والنقود ...

وهالني ما فوجئت به من ذلك الهزال الغريب الذي اشهده لاول مرة في هذا الوجه الصغير المنمنم ، وذلك السعال الذي ما يكاد ينقطع عنه حتى يعاوده بين اللحظة والاخرى .

وما كان هذا الغلام بغريب علي ، فهو واحد من هؤلاء الجيران الذين اعرف كلا منهم باسمه ومهنته . فليست اسماؤهم مما يحتاج إلى ذاكرة قوية . فهي تتراوح بين أحمد ومحمد وعبد... وليس في مهنهم جديد ، اذ هي من مهن هؤلاء العمال التي لا تتطلب مدرسة أو علماً . فهم بين حمال يعمل على ظهره ، او أكار يعمل على حماره .. وقد عرفت (م.ب) هذا واحداً من اؤلئك الصغار الذين يبكرون للعمل مع آبائهم . فقد كان له حمار كحمار أبيه ينقل عليه الرمل والحصى من الشاطىء إلى هذه الابنية الجديدة ، التي تنهض خارج منطقة السور من طرطوس القديمة . وكنت لا اتمالك عن الاعجاب بعضلاته الممتلئة نشاطاً وحيوية . وبوجهه الأبيض الجميل الذي يفيض طلاقة وعافية .. ولكن الذي كان غريباً عليَّ هو هذا التغير المفاجىء . فقد جعل يبدو لعيني أطول مما كان بالامس ، وما اظنه قد طال . ولكنه عمل الهزال الذي تجاوز المألوف ،

فكان من شأنه ان يخدعني عن الحقيقة . ثم هذه الكآبة التي طفت على وجهه فلم تستطع ان تحجب ما وراءها من الانسجام القديم الذي لم يستطع الهزال ان يزيل كل شواهده .

وما وسعني ان امضي في طريقي فدنوت من الغلام اسأله عن شأنه ، فاذا هو يخبرني عما اردت في نبرات متقطعة توشك ان لا تبين ؛ لقد علمت انه يقاسي آلاماً مبرحة في صدره . وقد أخذه أبوه يوم امس إلى طبيب المستوصف . فأكد له الا سبيل إلى معالجته في غير مصح (بحنس) من لبنان أو مستشفى (ابن رشد) من حلب .. وما دام في غير مقدور الأب ان ينتهي به إلى احد المصحين فهو مضطر لان يقضي ايامه الباقيات في هذه التسلية من بيع قصب السكر . !

ولم اكن بعد في حاجة إلى زيادة ايضاح . اذ ثبت لديَّ ان الغلام قد وقع فريسة لهذا السل الذي يوشك ان يحاصر الحي بأجمعه .

واستأنفت مسيري . وكان متعذراً علي ان انفض رأسي من هذه الأفكار التي فتحها علي مشهد الغلام وزبائنه وعلبته ..

لقد رأيتني استعرض في غير وعي مآسي هذه البيوت التي يهاجمها وباء السل من هذا الحي الذي اعيش فيه ، فتطالعني تلك الوجوه الصفر التي تطل علي كلما رحت أو غدوت في طريقي من هذه الازقة ، واتذكر كذلك تلك الوجوه الاخرى التي غيبها الوباء في احضان الثرى ، بعد أن اطفأ منها شعلة

الحياة . فاجدني اردد على نفسي في غير وعي كذلك هذا السؤال : « إلى أين المصير ؟ ! » ...

وتنبهت فجأة من اخيلتي حين لقيت هذا الجار الآخر يقف في طريقي ليسمعني استغاثته وليريني دموعه .. انه (ص.د) ذلك الذي عرفته يوم كان حانوتي مجاوراً لحانوته . لقد قضيت في جواره ثلاثين شهراً اراه كل صباح ينهض لاستقبال زبائنه القرويين في مطعمه القذر . حيث يقدم لهم الخبز والحمص المدمس . وطالما كنت احذره من ذلك الاهمال الذي يطغى على ثوبه وحانوته ، فيرد ذلك إلى الفقر الذي لا يكاد يدع له سبيلاً لكسوة اطفاله الخمسة فضلاً عن كسوة نفسه واصلاح مطعمه . فاسكت على مضض امام حجة الفقر .

لقد حظرتْ عليه مصلحة الصحة العمل في المطعم . لان طبيب البلدية قد اكتشف في جسمه جرثومة السل .. وها هو ذا اليوم ممنوع من العمل . لا يدري من أين يأتي بقوت أهله ، فضلاً عن ان يجد السبيل إلى علاج نفسه ! .

ولقد آلمني منظر هذا الرجل الآخر . وكان آلم ما لقيته منه هذه الكلمة التي ارسلها في صوت يخنقه النشيج : « ما دمت مسلولاً فما بالهم يتركونني في بيتي انقل عدواي إلى هذه الانفس ؟ لينقلوني إلى المصح .. او ليقتلوني كما يفعلون بالكلب المسعور ! .. »

واحببت ان يسمع حجته هذه اولئك الكبار من المسئولين ،

فذهبت ادور به على نخبة من الرفاق . ثم انتهينا جميعاً إلى رئيس القضاء الذي لم يطق رؤية المسكين في غرفته . فطلب الينا امساكه في الخارج ! . ولا ادري كيف استطعنا ان نظفر هذه المرة بما لم نظفر به من قبل .. فلم نغادر تلك الغرفة حتى اطمأننا إلى اتخاذ القرار اللازم بصرف الف وخمسمئة ليرة من حساب المجلس البلدي كدفعة اولى لالحاق(ص.د) وزميله الغلام الآخر بالمصح ...

وفي صبيحة اليوم التالي كان الاول في طريقه إلى مستشفى حلب ، وكان الآخر في صحبة أبيه إلى بخنس ...

ومضى على ذلك اليوم ثلاث سنوات كوامل ، واراني الساعة استعرض هذه الحادثة ، فتعتورني انفعالتان متناقضتان تمتزج في اثرهما الدمعة بالابتسامة .

لقد وصل (م.ب) ذلك اليوم إلى المصح فاستقبل صدره اول حقنة من الهواء ، فلم يكن في رئتيه من القوة ما يصمد لها ، فاذا هو يلفظ انفاسه في اليوم التالي ، ويعود به ابوه ليودعه مأواه الاخير بين اترابه الذين جرفهم الوباء .

ويستقر (ص.د) في مستشفاه الآخر يسترد عافيته اليوم بعد اليوم ، وتقوم زوجته العظيمة بدوره في اعاشة هؤلاء الاطفال ، لا تدخر وسعاً من اجل ذلك في خدمة شتى البيوت ، وفي صدرها أمل ينمو ، وعلى شفتيها ابتسامة لا تفارقهما .

اجل لقد خسرت صفقتنا يومئذ واحداً من اثنين . ولكنها كانت على كل حال صفقة رابحة يتمنى الظفر بمثلها كثيرون من اولئك المساكين الذين لا يزالون في قبضة الوباء القاتل ...

انها حكمة القدر ان يمزج احياناً بين الدمعة والابتسامة ! [1]

---

(١) ولكن القدر لم يلبث أن أبدل بالابتسامة دمعة أخرى ، إذ وافى الرجل أجله في المستشفى الحلبي ... بعد كتابة هذه القصة !

من القاتل ؟..

كان الشيخ احمد من الرجال الصالحين الذين عرفهم الجيل الماضي في طرطوس . طوى الستين من عمره في شيخوخة وقور لم يعرف الناس له كذبة . ولم يجربوا عليه خلقاً يشين امثاله من اهل الله . وقد زاد في وقاره عند العامة انه كان ضريراً فقد بصره منذ طفولته . يوم اصابه رمد لم يكن في البلد من يحسن معالجته ، فما لبث ان ذهب بنور عينيه . فانقطع عن عالم الناس منذ ذلك اليوم ، واصبح موضع الشفقة في نفوس اترابه ، ثم ما عتمت هذه الشفقة ان تحولت إلى حب وتقدير عندما انصرف إلى دراسة القرآن على بعض شيوخ الكتاب وجعل يستحفظه عن ظهر قلبه .

ولم يكن للشيخ من مورد يعول عليه في حياته بعد وفاة والده ، فاضطر إلى اللجوء للمهنة الوحيدة التي توفرت له من هذه الدراسة البدائية ، فافتتح له كتاباً في « الزاوية العدوية » واقبل عليه الآباء باطفالهم يودعونهم كنف الشيخ ، ويوصونه بالعناية

بهم مرددين على مسمعه قانون ذلك العهد : « اللحم لك والعظم لنا » .

ومضى الشيخ احمد في مهمته يقرأ على تلاميذه كتاب الله ويستمعه منهم ، ويعهد ببعضهم إلى بعض بالاقراء والمدارسة ، وهكذا قضى اكثر عمره لا يعرف من مدينته الصغيرة الا بيته وكتّابه والمسجد الذي بينهما ، يقضي فيه صلاة العشاءين ، ويؤلف في حلقاته التدريسية العضو المستمع الدائم ، وهو في كل يوم يزداد وقاراً في اعين تلاميذه وغيرهم ممن يحسنون تقدير الصالحين والمتعبدين .

* *

ورجع الشيخ متأخراً من المسجد ذلك المساء اذ كانت ليلة جمعة وقد اعتاد بعض المصلين ان يقيموا حلقة الذكر في مثلها من كل اسبوع . والف هو ان يكون واحداً منهم . ولما اقبل على فراشه كان مجهداً من التعب . يحس بحاجة ماسة إلى النوم ، لذلك لم يلبث ان نزع جبته ووضع عمامته ، ثم استلقى على فراشه يردد « آية الكرسي » ثم لم يسكت لسانه حتى كان يغوص في بحران نوم عميق .

ولم يكن الشيخ أحمد من بلداء الشعور . الذي يقتل النوم من قلوبهم طاقات الوعي . فيصبحون كقطع الجماد لا دليل فيها على الحياة سوى حركة التنفس .. بل كان من رهافة

الحس بحيث لو مرت به البعوضة لاعادته إلى أشد ما يكون من اليقظة . ثم هو بحكم اعتياده النهوض للعبادة في أوقات معينة من الليل ، قد ألف التحكم في حالات جسده حتى ليستطيع الانتباه ساعة يشاء . ولذلك كان من البديهي أن يسمع هذه الطرقات الثلاث التي سقطت على باب داره في الهزيع الأخير . فلم يلبث ان ارهف اذنيه نحوها ، ليتأكد من مصدرها ، دون ان يسأل اول الأمر : من الطارق ! ..

وتتالت الضربات مرة اخرى .. ثم تعالى صوت رزين ينادي من وراء الباب : « يا شيخ احمد، يا شيخ احمد» فلم يعد لدى الشيخ من شك بان بابه هو المطروق ، وانه هو المطلوب دون سواه ، فنادى باعلى صوته « ألله ... الله ! .. »

وسكتت الطرقات ، ونهض الشيخ من فراشه ، ولم ينتظر ليتلمس عكازته بل اندفع لفوره نحو باب الغرفة ، فشد مزلاجه ، ثم مضى يجتاز الممشى الضيق بهدوء حتى اتى باب الدار الخارجي ، فأخذ لفوره خيط المزلاج الذي الفته يداه منذ بعيد ، ولم يلبث ان فتح الباب ، وقبل ان يسأل من الوافد ، سمع الصوت نفسه يبادره بتحية الصباح في كثير من الأدب .. ثم سمعه يقول : « عذراً يا سيدي الشيخ .. لقد ازعجتك ، ولكنها الضرورة . »

— خيراً ان شاء الله !

ـــ ان طفلي مريض وقد اشتد عليه المرض هذه الساعة ، فلم اجد مندوحة من ان ادعوك لرقيته ، لعل الله ان ينفعه بدعائك ».

وسكت الشيخ لحظة امام هذا الرجاء ، ولعل لهجة الرجل قد مست موطن الأُبوة من نفس الشيخ . فوجد له العذر في هذا الازعاج بمثل تلك الساعة المتأخرة من الليل ، او لعله قد فكر بما تعود عليه هذه الفرصة من مكافأة لا بد الا ان تكون مناسبة ، فما عتم ان اجاب الزائر :

« لا بأس على الطفل ، ولا تيأس من رحمة الله ، انتظر قليلاً حتى ارتدي ثيابي » .

وقفل إلى الحجرة فارتدى جبته ورفع إلى رأسه عمته، ثم أخذ عصاه وانسل من الحجرة ثم أغلق بابها بهدوء دون أن يوقظ زوجته واقبل على الرجل . وقبل ان يتجاوز باب الدار فطن لشيء فقال : « اظن الظلمة شديدة فسآتيك بالفانوس » وهم بالرجوع إلى الحجرة ، ولكن الرجل ما لبث ان اجابه : « لا حاجة بي يا شيخ . لقد احضرت فانوسي » وهز الزائر الفانوس ليسمع الشيخ ، ثم ادناه من يده ليستشعر حرارته ، فكف الشيخ عن عزمه . ووضع يده على كتف صاحبه ، ثم مشى يتبع خطواته ، وهو يمد صوته بتسبيح الله .

*

لم يكن الشيخ احمد عارفاً إلى أين يسير ومع من يسير . فقد رأى من غير المستحسن ان يكثر الاسئلة على الرجل . واكتفى بما علم من امره . ولكنه كان يدرك من اوضاع الطريق الذي يمشي فيه انه يسير في اتجاه « البلدية » ، ثم ادرك من الالتواءات التي يجتازها انه اصبح في منطقة « الخندق » حتى اذا وصل به الدليل إلى موضع هناك شعر من الروائح العفنة انه على مدخل « قبو عرفات » .

ووقف دليل الشيخ قليلاً كانما يصلح شأنه . ثم وضع يد الشيخ عن كتفه واخذ بذراعه ، وتقدم به بضع خطوات . ثم ما لبث ان جعل ينحدر به على درجات لم يكن للشيخ عهد بها هناك قبل تلك الساعة ، وتلا ذلك سير متعرج احس الشيخ اثناءه انه يجوب في دهاليز وابهاء من بناء ضخم متسع . وشعر هناك بقشعريرة تسري في اوصاله . فحاول ان يسأل قائده عن المكان والغاية ، ولكنه كان يحس ان الكلمات تختنق في حلقه فلا يستطيع اخراجها الى لسانه . وكأنما الدليل ادرك ما يجول في صدر الشيخ فجعل يطمئنه بقوله : « قليلاً . قليلاً . لا تخف يا شيخ احمد » .

ولكن ذكر الخوف وحده في هذه اللحظة كان كافياً ليبعثه حقيقة في قلب الشيخ . فحاول لاول مرة ان يقف عن سيره ، بيد انه وجد نفسه مكرهاً على مواصلته . وفي اثناء ذلك جعل سمعه يلتقط لغطاً بعيداً ما لبث ان اخذ يتضح حتى صار على مبعدة اذرع منه .

وأدخل الشيخ من باب تلمس مدخله بيده ، ثم أجلس على مقعد بارد من الحجارة ولكنه ناعم انيق .. واستجمع قواه فألقى التحية على القوم الذين ما لبثوا أن ردوا تحيته بأحسن منها .

ولم يبق لدى الشيخ من شك في انه بين جماعة غير الذين دُعي إليهم، ولكن ذلك لم يزده إلا حيرةً ولم يزد المشكلة إلا تعقيداً ! ! .

* * *

وتعالى من وسط القاعة صوت هادىء رصين يقول :

« يا شيخ احمد لا تخف سوءاً فأنت في محكمة اخوانك من الجن المؤمنين ، وقد رُفعت عليك قضية يجب أن نعرف جوابك عنها .. »

وكانت الوقائع المتتابعة قد قربت الحوادث إلى فهم الشيخ ، فلم يضطرب كثيراً عند ذكر الجن ، لا سيما بازاء هذا اللطف الذي استشعره من لهجة مخاطبه ، فشدد اعصابه وحزم امره على مواجهة الواقع الذي لا مفر منه ، ثم جعل يرهف سمعه يترقب الكشف عن هذه الدعوى التي ما كان ليهتدي إلى حقيقتها !

ولم يطل الصمت فاذا الصوتُ نفسه يرتفع مرة اخرى ليسأل الشيخ عن اسمه ومهنته وسنه ، ثم يلتفت إلى شخص آخر يظهر انه كان بجانبه من الجهة الموازية ، فيسأله كذلك نفس السؤال فيجيب :

« اسمي حيان بن نهيان .. عمري ثلاثمئة سنة .. عامل اشتغل في مطحنة العظام .. »

ويطلب القاضي اليه أن يبسط دعواه فاذا هو يزعم ان الشيخ قد قذف بولد له من نافذة الزاوية العدوية نهار أمس ، فاصطدم بجدار الخندق فشج رأسه ، ثم لم يلبث ان توفي من اثر ذلك .. !

ودهش الشيخ احمد باديء الأمر لهذه التهمة ، ولكنه ما لبث أن مسح جبهته براحته ليتذكر حادثة جرت في زاويته عصرَ اليوم الغابر ..

* * *

.. كان مكتب الشيخ غاصاً كعادته بعشرات الاطفال ، وقد علت ضوضاؤهم في دوي رتيب ، يرددون دروس « الماضي » التي اعتادوا ان يرددوها عصر كل يوم ، والشيخ محتبٍ على طنفسته ، وظهره إلى وسادته العتيقة يضرب بقضيبه الرماني على منضدته الصغيرة بين الفينة والفينة ، لينبه تلاميذه إلى وجوده ، او ليصحح ما وقع في اذنيه من خطأ في القراءة ، لذلك كانت دهشته بالغة عندما احس انقطاع ذلك الدوي عن سمعه فجأة ، وشعر بحركة الاطفال يتجمعون في الجهة المقابلة من البناء ، وتوقع لأول وهلة ان يكون سبب ذلك قدوم احد الوجهاء ، او احد رجال الضبطية — الدرك — إلى الزاوية ، فالتفت إلى جانبه ليسأل اقرب تلميذ فلم يتلق جواباً ، إذ لم يتخلف احد عن

الجمع المحتشد هناك . فرفع صوته باسم احدهم ، وبعد تكرير النداء عدة مرات اقبل الطفل ليخبر الشيخ ان فرخ بومة قد سقط في الزاوية . فتكبكب التلاميذ عليه يعبثون به ويعجبون لأذنيه وعينيه ووجهه الذي يشبه وجه الانسان ! . وثارت ثائرة الشيخ لهذا العبث ، وصاح في « اولاده » يؤنبهم ، ثم امر باحضار الفرخ . ولم يجد وسيلة للانتقام منهم إلا بأن يقذف بالفرخ من النافذة . تلك القذفة التي كانت فيها نهايته . إذ علم بعد ذلك انه سقط على جدار الخندق فاندق عنقه . !

وادرك الشيخ إذ ذاك حقيقة الجريمة التي جيء به من اجلها إلى هذه المحكمة ، وعلم ان هذا الفرخ الخبيث لم يكن سوى طفل جني تقمص شكل الطائر الذي اقدم على إلهاء تلامذته ! .. فسرت في جسده قشعريرة جديدة ، ولكنه لم يجد في عمله اي تبعة يستحق من اجلها قصاصاً ، فعزم ان يدافع عن نفسه . وان يبدي عذره بصراحة .. وانتظر حتى سمع صوت القاضي يدعوه إلى الكلام ، فانتصب واقفاً في جرأة واطمئنان ثم قال :

« اني – كما ترون – رجل ضرير لا ابصر ما امامي . فلم اكن متعمداً ايذاء الفرخ عندما ألقيته من النافذة .. هذا مع العلم باننا معشر البشر لم نعهد ان يكون في الفرخ من البوم شخص جني ، فالذنب في ما اصابه ليس ذنبي اذن ، ولكنه ذنب الجني نفسه ، او ذنب اهله الذين لم يحذروه عاقبة هذه التجربة .. »

ويظهر ان رد الشيخ كان معقولاً . فما كان من القاضي الا ان سكت قليلاً ، وسمع الشيخ في اثناء ذلك همساً يتردد من جانب المنصة . غير انه كان خافتاً وغريباً عن كلام الناس فلم يفهم شيئاً ، ومكث في وقفته يهيء في سره الحجج الصالحة ليتبع بها كلمته .. ولكن انتظاره لم يطل اكثر من بضع دقائق ، حتى سمع الصوت يعود مرة اخرى إلى الكلام . فيقول ، وكأنه يقرأ ما يقول في صحيفة مكتوبة ، وفي لهجة مقعرة اشبه باللهجة التي اعتاد ان يسمعها من شيخ المسجد في حلقة الدرس .

« لقد اقتنعت المحكمة بحجة المتهم . وهي تعتبر ان التبعة في ما حصل من فاجعة الطفل انما تقع على عاتقه وعـاتق ذويه ، الذين لم يحذروه عواقب هذه اللعبة الخطرة . ولذلك حكمنا ببراءة « الشيخ احمد الكز » ونأمر « الحيقظان » بايصاله إلى داره بكل اكرام .. على ان المحكمة ترى من الواجب ان تذكر الشيخ بان يكون بعد اليوم اكثر رحمة بمخلوقات الله مهما يكن شأن هذه المخلوقات ونوعها . فانما يرحم الله من عباده الرحماء .. »

واحس الشيخ بنشوة السعادة تغمر نفسه بهذا القرار . فلما اتى القاضي على آخره رفع يده إلى رأسه على الطريقة التركية ، محيياً عدالة المحكمة ، ثم اخذ يتلمس ذراع صاحبه الحيقظان ليمضي به من هذا المأزق ..

وكان مؤذن الفجر قد بدأ يرسل صوته بكلمة « الله أكبر »، فيتموج بها الفضاء الساكن في هينمة مهيبة ، عندما وضع قدمه على مدخل بيته ؛ فلم يرَ حاجة للدخول ، وقفل عائداً ليسلك طريقه المألوف إلى المسجد ، وهو يردد مع المؤذن كلماته المؤثرة في عمق روحي لم يشعر بمثله قبل تلك الساعة .

وجوه من الجبل

كان أول عهدي ببيت (الشيخ علي) قبل أحد عشر عاماً ، حينما كنت مع رفقة لي من الشباب في رحلة جبلية إلى نواحي (الشيخ بدر) .

وكنا قد دأبنا قبل ذلك على القيام بمثل هذه الرحلات الرياضية إلى تلك البقعة الهادئة في كل صيف ، منذ عدة سنوات فنقضي هناك قرابة الشهر نستمتع بعشرة أولئك القرويين ، ونشهد احتفالاتهم التي يقبلون عليها من أقاصي الجرود والساحل ، حيث يوفون نذورهم إلى مقام « الشيخ بدر » وينتهزونها فرصة للتخفيف من أعباء السنة ، بما يقيمون هناك من حفلات تنطلق بها نفوسهم فتعود إلى فطرتها الأولى ، لا تعنى بغير المرح والغناء والطعام .. ثم لا تخلو ساحة المزار من وفد حتى يحل محله وفد آخر ، ثم وفود أخرى بحيث لا ينقطع سيل هذه الجماعات إلا بنهاية هذا الفصل من حياة الصيف .

وبالرغم من استعدادنا التام لهذه الرحلات . بما نصحبه من حوائج الطعام والمنام ، فقد كنا بحاجة دائمة إلى الاتصال

ببعض بيوت « الاندروسة » نكلفها اعداد الخبز . ونشتري منها مالا سبيل لاصطحابه من الحليب واللبن والزبد والفاكهة . فكان هذا بنفسه سبباً لاستحداث الاتصال بأهلها . وللتردد على منازلهم . مما كان له اثر بعيد في روابط وثيقة من الصداقة البريئة ، تجمع بيننا وبينهم . فتفرغ على هذه الرحلات لوناً من الانس لا غنى عنه في مثل تلك المناسبات .

وكان من حظي أن ظفرت بتوثيق هذه الصلة مع معظم أولئك السكان . ولكن أشدها كان تلك التي أحدثتها مع بيت « الشيخ علي » اذ جعلت هذا البيت مرتادي في كل صباح ، أتناول به طعام الفطور مع ولدي مقابل دريهمات وفقت بالجهد إلى ارضاء القوم بقبولها . بعد أن أصروا على ان يعتبروني ضيفهم الدائم دون اي مقابل .

وكانت فرصاً جميلة تلك التي كنت أجدني فيها محاطاً بعناية هذه الاسرة من كبيرها الشيخ إلى أصغر أطفالها . فما إن أقبل عليهم حتى يغمروني باكرامهم وبشرهم . ويبذلوا لي أطيب ما عندهم من الزبد والفاكهة الجديدة .. بل لقد كان لي مثل هذا الود في قلب كلبهم (صفور) نفسه . فهو بالرغم مما عرف به من الشراسة والنباح على كل قادم . ما يكاد يحس وقع خطواتي حتى يهمهم ويرخي أذنيه ، ويبصبص بذنبه ، مفسحاً لي الطريق لكي آخذ مكاني من البيت .

وقد زاد في توثيق هذه العلاقة بيننا ذلك الغلام من أبناء

الشيخ ، الذي كان يؤثرني دون سائر رفاقي بمحبة خالصة ، فلا يكاد يفارق مجلسي أينما ذهبت مدة وجودي في تلك البقعة، وقد أغراه بذلك ما توسمه بي من ميل إلى العلم ، وانشغال به ، فيحاول ألا يفوته شيء من حديثي ، وان يكون له اتصال بكل ما استحضرته من الكتب . وكنت بدوري ألذ منه هذه النباهة فأحاول أن اقابل عنايته بمثلها . ولما حان موعد عودتنا اتحفته ببعض هذه الكتب ، وخصصته بنسخة من مؤلفٍ لي جعلتها له هدية وذكرى .

ثم ضرب الدهر بيننا فانقطعت عن زيارة « الشيخ بدر » وجعلت لا أرى أحداً من هذا البيت الا لماماً ، حين يقدم صديقي الصغير (يوسف) هذا إلى المدينة لبعض عمله ، فلا ينسى أن يمر بي لتجديد تلك الصلة القديمة .. حتى كانت الحرب وكانت الأهوال التي غمرت القرى من أزماتها الرهيبة ، فتركت الكثرة من سكانها لا تجد سبيلاً إلى القوت الا من هذه الأعشاب ، التي يمنُّ بها الله على المحرومين لتحفظ لهم آخر صلة بالحياة .

* * *

وكانت الأزمة قد بلغت أوجها في عام ١٩٤٢ على القرى الجبلية خاصة ، اذ انقطع نتاجها من الحبوب ، فتوافد سكانها على المدينة يلتمسون نجدة « الاعاشة » . وكنت ايامئذ امينا لمستودع القضاء ، أسلم مخصصات القرى التي أُذن بتناولها .

وذات يوم بينما أنا في مكتب المأمور ، اساعده في تنظيم الوثائق ، وقد امتلأت الغرفة بالقرويين يتسابقون إلى اختطافها ، إذا انا بوجه امرأة متوسطة العمر تطل من بين الجمع وقد جمدت عيناها عليَّ . وعلى الرغم من جهلي التام لهذه المرأة ، فقد شعرت بحافز خفي يدفعني إلى التأمل بهذه النظرات الكسيرة تصوبها إليّ ، ولم ألبث ان دعوتها ثم سألتها عن شأنها . فقالت بلهجة فيها شيء كثير من الحزن : « يظهر انك لم تعرفني .. ! ام يوسف .. ألم تذكر ام يوسف ؟ ! » .

وفجأة ذكرت كل شيء ، وكان اول كلمة القيتها عليها هي سؤالي عن يوسف .. وكانت صدمة هزت مشاعري عندما رأيت دموعها تنهمر في غير ارادة على خديها الشاحبين ، وسمعتها تتمتم : « لقد ذهب يوسف .. لقد مات يوسف يا ابا غسان ! »

وفهمت بعد ذلك ان ضربة شمس قد اصابت يوسف فلم تمهله إلا اياما معدودة ، ورأيتني امام ذلك مدفوعاً بغير إرادة ايضاً إلى البكاء ، ثم سألتها عن حاجتها ، فعلمت انها الأزمة الضاربة قد أتت على آخر حبة في بيتهم ، ثم اوشكت ان تذهب بكل ما يملكون من الحقول الصغيرة التي اضطروا إلى تبديدها بيعاً ورهناً .. وانها لم تقدم على هبوط المدينة الا حين علموا انني ذو علاقة بالاعاشة لعلي استطيع نجدتهم بشيء ..

وتمكنت يومئذ من شراء كيس من الشعير قدمته اليها ، ثم استمررت على هذا الشراء لهم في رأس كل شهر ، حتى استطاعوا ان يجتازوا المحنة .

وقدّر القوم عملي ذاك فوق قدره . فلم يكتفوا بتوفية مالي حتى جعلوا يهبون لي حبهم وقلوبهم ، وجعلوا ينشرون حديثي في كل مجلس وقرية يتصلون بها . وكان آخر ما لقيت من تلك العواطف قبل بضعة اشهر عندما أقبلت على بيتنا هذه المرأة ترفع الينا رغبة الأسرة كلها بتمضية بعض الصيف في كنفهم ، ولم تدعنا حتى استوثقت من الاجابة . ثم مضينا جميعاً إلى « الاندروسة » نتلقى ضيافة القوم بل ضيافة القرية كلهـــا .

* *

والحياة في القرية قلما تتغير أو تمتد اليها يد التطور . لذلك رأيتني أستعيد من جديد تلك الهنيهات اللذيذة التي تذوقتها قبل أحد عشر عاماً . لم ينقصهـــا شيء سوى وجه يوسف وحديث وسف وصحبة يوسف !

فالبيت هو نفسه لا يزال على شأنه الماضي . مقيما بجانب ذلك المجرى المتتابع من عين الشيخ بدر في طريقه لسقـــاية الحقول . والأسرة لم يختلف عليّ من أمرها إلا هذا التفاوت الذي أحدثته السنّ في هيئات بعض أفرادها الذين عرفتهم في أحضان الطفولة .. حتى « حليمة » التي كانت قد تزوجت في إحدى القرى البعيدة أحضرت إلى البيت لاستكمال الانس . على أن أمتع ما لقيناه إبان هذه الزيارة ذلك الاهتمام الذي كانت تحوطنا به « حفيظة » إذ كانت بمرحها الجم ونشاطها الوفير وحيويتها الرائعة

منبع الكثير من تلك الغبطة التي نعمنا بها هناك .

وكنت أعرف «حفيظة» في الماضي طفلة في الرابعة ، تستقبلني بزقائها الفرح وغمغمتها الساحرة . فأضمها إليّ وأضعها على ركبتيّ لا تغادرهما حتى أغادر البيت . أما اليوم فهي روح الدار وجمال الحياة للأسرة كلها . لا تعرف قراراً طوال النهار ، فهي حركة دائمة تهيء العجين . وتوقد التنور ، وتأتي بالحطب من أقصى الوادي ، وتوزع العمل على اخوتها .. واذا ما جن الليل فهي القصاصة الماهرة ، وهي المنشدة الساحرة تملأ البيت مرحاً وجمالاً وبهجة .

وكان من الطبيعي أن يتشبث أطفالي «بحفيظة» فيبكوا لفراقها ويمسكوا بثوبها . يريدون أن يأخذوها معهم إلى المدينة ، كأنها لعبة لهم لا حق لأحد باغتصابها .. ونلح نحن على أبويها أن يسمحا لها بقضاء شهر بيننا ، غير أن هذا كان مستحيلاً في ذلك الوقت لحاجة البيت اليها ، ومع ذلك فقد استطعنا أن ننتزع منهما عهداً بإرسالها الينا في نهاية موسم التبغ .

ولبث الأولاد بانتظار حفيظة . حتى كان ذلك اليوم الفاجع ! ولم تكن الفجيعة موتاً أصاب «حفيظة» ولكنه كان أشد هولاً من الموت نفسه ، ذلك أن «حفيظة» التي انتظرها أطفالي كل هذه الأيام لم تكن هي نفسها التي قدمت عليهم ذلك اليوم !.. بل كانت فتاة أخرى لا صلة بينها وبين سابقتها في شيء إلا هذا

الاسم الذي يمسك الرابطة بين الفتاتين .

لقد كانت «حفيظة» هذه صمّاء قد زالت عنها بشاشة الحياة ، وفارقها ذلك المرح القديم . حتى صوتها .. ذلك الصوت المشرق الضاحك كخرير الجدول . قد غاض في حلقها فيكاد لا يسمع إلا في مشقة ! .

ومضيت «بحفيظة» هذه أعرضها على الأطباء ولكن عبثاً .. فإن جهاز السمع قد أصبح ميتاً لا حياة فيه ولا أمل بعودته . وكان أفضل علاج لها هو الوهم وحده . فلفقت لها أنها ستعود إلى السمع مع الزمن . وأتيتها بدواء وصفه أحد الأطباء لتستعمله دون أن تعلم أنه بريء من كل فائدة .

وأبى الأطفال أن يصدقوا الواقع ، فعادوا إلى شأنهم الأول يجتمعون حول «حفيظة» لتصل لهم ما انقطع من متعة الماضي .. وجعلت هذه تضيق بمحاولاتهم فتكتفي بالابتسامات التي لا تملك لهم غيرها .. ثم طفق الأطفال ينصرفون عنها بدورهم ما دامت غير التي عرفوها بالأمس ، فليس عندها ما يرغبون فيه ..

وكان من العبث محاولة إقناع حفيظة بالخروج من تلك العزلة التي ضربتها حول نفسها في إحدى الغرف .. وبخاصة في تلك الأمسيات التي تجتمع فيها الأسرة حول المذياع لتستمع إلى نشرة الأخبار ، أو إلى بعض الأحاديث المفيدة ..

..ولعل أشد ما كان يبدو عليها من القلق والوحشة ساعة تقع عينها على هذا المذياع في مكانه من الغرفة الكبيرة ، فسرعان ما

يستولي عليها الضيق ويستحوذ على أعصابها الاضطراب ، فتنسل لتكب برأسها على ركبتيها ، وتستسلم إلى بكاء صامت لا سبيل إلى دفعه .

وعلى الرغم من أن الإجازة التي مُنحتها للاقامة بيننا كانت شهراً كاملاً . فقد بدأت تطلب منا بإلحاح أن نعيدها إلى القرية قبل أن تستكمل العشرة من الأيام ، وكنا نقابل إلحاحها بما وسعنا من الإمهال والمطاولة بغية إقناعها بالبقاء حتى كدنا نطمئن إلى رضائها عن ذلك .

ولكن حدث أن عدت ذات يوم إلى البيت قبل الوقت الذي الفت العودة اليه في الظهيرة . وأطللت كعادتي على الغرفة الصغيرة لأتفقد «حفيظة» فلم أجد لها أثراً ثم لم أجد في البيت من يعرف لها أثراً .

وبعد بحث طويل علمت أنها انسربت في غفلة من الأسرة ، ثم ذهبت إلى موقف السيارة العاملة على طريق الشيخ بدر ، فلم تدع ذلك المكان حتى تهيأ لها الرجوع إلى القرية .

* * *

وانقطعت أخبار حفيظة عنا طوال شهر ، حتى عرفت أنها تجوب مع أمها مزارات الجبل تلتمس عندها الشفاء ، بعد أن يئست من غوث الأطباء .

الطفل الأعمى

كان ذلك مساء أمس إذ وقف عليّ اثنان أعرفهما من عمال طرطوس .. أما أحدهما فيملك عربة من هذه العربات الصغار التي يجرها الحمير ، والتي ابتدعها بعض فقراء طرطوس ينقلون عليها أمتعة الناس وخضار الباعة ، بدلاً من حملها على ظهورهم. وأما الثاني فهو كذلك واحد من هؤلاء الذين يعملون في نقل الرمال والحصى على دوابهم إلى الأحياء التي أغفلها التطور ، فلم تستطع السيارة أن تزاحمهم عليها إلا قليلاً .. وعرض أحدهم عليّ صحفة من تلك التي تُستعمَل في المقاهي لنقل الفناجين إلى الزبائن ، وكان قد تجمع عليها عدد قليل من القطع ذوات الخمسة القروش والقرشين والنصف ... وكأنما خشي أن أسرع بكلمة الرد أو أعجل إلى الشك بمسعاهما ، فانحنى نحوي قليلاً يسر في اذني اسم العائلة التي يجمعون لها هذه النقود ، ويقول «انها عائلة (ا . ع) وقد أقعده المرض ، ونحن نعمل على إدخالـه المستشفى من الغد ، وغرضنا أن نستجدي لأسرته كل يوم ثمن خبزها ريثما يسترد عائلها القدرة على العمل ..»

ولم يكن في جيبي ما يتلاءم مع الرغبة التي أثارها في نفسي ذكر هذه العائلة فدفعت إليهما بما تيسر ....ولما ابتعدا عني يتمان جولتهما على زبائن المقهى رجعت إلى ما أنا فيه من النظر في الكتاب الذي اعتزلت الرفاق لتلاوته ذلك المساء ؛ على أني لم أستطع المضي في المطالعة إذ رأيتني مشغولاً عما بين يدي من هذه السطور بذكريات قديمة عن هذه العائلة ، ما كان لي مندوحة من التفرغ إليها .

وانفلت شريط الزمن في مخيلتي فإذا أنا استحضر حوادث ذلك اليوم الذي انطوت فوقه صفحات خمس من السنوات ..

كنت أهبط يومئذ درج منزلي حين وقعت عيناي على هذا الطفل جالسا على أسفل الدرج المقابل ، وبجانبه طفلة أخرى فيما يقارب الخامسة ، وكان يبدو عليه أنه أخوها وأنه أصغر منها بسنة واحدة أو قريباً من ذلك .

رأيت هذه الطفلة تضع في يد أخيها كرة صغيرة من الحصى ، فيضم عليها أصابعه وهو شاخص العينين في اتجاهي ، ولمحت على حين غرة عينيه الواسعتين ، وقد برز من كلتيهما بؤبؤها في اندفاع مثير ضاقت عنه الجفون ، فلم يكن ثمة متسع لإطباقها إطباقة كاملة . ولم يسعني أن أواصل طريقي دون أن أتعرف هذا الطفل الأعمى فمسحت على رأس الطفل براحتي ثم سألتها عن أبيها فقالت : (ا . ع).

وعرفت يومئذ أن هذين الطفلين هما من جيراني ، وانهما

يسكنان مع أبويهما وأختهما الصغيرة الأخرى في البيت السفلي المقابل لمنزلي ... وعلمت كذلك أن هذه العائلة قد نزلت هذا المسكن منذ شهر ، وكانت قبل ذلك تعيش في قبو مظلم بالجانب الآخر من حينا ، وهي لم تغادر ذلك القبو إلا مكرهة على مغادرته . إذ كانت مصارف البيوت التي فوقها مسلطة على جانبيه ، وكان سقفه لا يمسك ما ينهال عليه من مياه الأمطار ورشح الأقذار ، فهم منه لذلك في مستنقع مقيم ، تتصاعد منه روائح العفونات ، وتعشش في زواياه مختلف الحشرات من الجراذين والفئران والحيات .. فلم يكن لسكانه مفر من مغادرته إلى هذا القبو الآخر .

اجل ، ان قبوهم الجديد هذا لا يخلو من الوكف في هذا الفصل الماطر ، وهم يرون أن قسما من سقفه مهدد بالانهيار بين اللحظة والأخرى ، ولكن الواقع أن في جانب منه مجالاً يتسع لنومهم ولانزوائهم ، عندما يحبسهم المطر عن الخروج الى فضاء الحي ... فهم على كل حال لن يتعرضوا مرة أخرى للخوض في ذلك المستنقع الذي أغرقهم بأصناف الأمراض ، وكان من أثره القضاء النهائي على عيني هذا الطفل .

ولقد كان متعذراً عليهم أن يجدوا الملاذ الذي يلجئون إليه ، وهم لا يكادون يجدون قوت يومهم من الخبز الجاف . فضلاً عن أن يقدروا على تسديد الاجرة لغرفة أو بيت صغير من البيوت المعدة لذلك ، لولا أن تداركتهم رحمة الله بهذا القبو الحالي ، ولولا أن أشفقت عليهم صاحبته الأرملة الفقيرة . فسمحت لهم بأن يأووا إليه دون أي مقابل .

وشعرت يومئذ بحرقة لاذعة في قلبي ، عندما رأيتني عاجزاً عن إسعاف هؤلاء الجيران بشيء ذي بال ، ولكني صممت ألا أكتم هذا الشعور ، وأن أكشف عنه للقوم الذين لا يعجزون كما عجزت عن الإسعاف الواجب .

وجررت قدمي ذلك المساء إلى القصر الذي ألفت أن أقضي بين زواره سهرات الشتاء ، وكان مكتظاً بذوي الثروات الضخمة من مالكي أرزاق البلد تجاراً وزراعاً ومرابين . وكان الحديث يدور ، كشأنه كل ليلة ، حول الطعام والأبنية والزيتون وأسعار الذهب . فلم أتمالك أن قذفت بقنبلتي في حماسة تتجاوز حد التطرف الذي عهدوه بي من قبل .

قلت : إنه لمن مضحكات الحياة أن يغرق مجلسكم الليلة في حديث النعمة ، من الأموال والأطيان ، وهناك على مقربة منكم عائلة يفتك بها الحرمان فتتلهف إلى اللقمة تسد جوعتها ، والخرقة تستر عورتها !. وانه لمن سخرية الحياة حقاً أن يقلق بال بعضكم لاضطراب أسعار الذهب ، خشية أن يصيبه بعض الخسار ، وقد ذهب الفقر الكافر بعيني واحد من أطفال هذه العائلة ، لا لذنب جناه سوى أن أبويه لا يملكان ثمن العلاج الذي يحتاج إليه ، وأن ليس لأبيه سبيل إلى إنقاذ عائلته من المستنقع الذي فرض عليهم أن يسكنوه ...»

وتبرع أحدهم بالرد عليّ فأحالني على المجلس البلدي ، الذي هو المسئول في نظره عن إسعاف هؤلاء المحرومين ، وانتفض آخر

يلوم الحكومة على تقاعسها في إنجاز الأبنية التي شرعت في إعدادها لهؤلاء العمال من سكان الحي الموبوء .

وأخذت الحماسة ثالث الثلاثة فضم صوته إلى صوت رفيقه ليقول : « ان الحكومة والمجلس البلدي هما المسئولان عن إنقاذ البلد من جرثومة السل التي جعلت تفتك بسكان هذا الحي ، وتتهدد المدينة كلها من ورائهم ، فحتام هذا التلكؤ في إتمام الأبنية ، ولم لا يشرعان بنقل بعض هؤلاء المساكين إلى المنازل العشرة التي أُنجزت من الحي الجديد حتى الآن ؟! لعلهما ينتظران حتى يذهب الموت بالباقين من هؤلاء المساكين ؟! ».

وخشيت أن ينصرف اهتمام القوم إلى الاكتفاء بنقد الحكومة والمجلس البلدي ، فقلت : « لذلك شأن آخر يمكن أن يُتدارك بمراجعة المسئولين ، ولكن هذا لا يسقط التبعة عن القادرين منكم على إغاثة هذه العائلة بما ينقذ بقيتها من براثن المرض والجوع . ».

ولم أعد أذكر ما حدث إثر ذلك ، ولكن الذي أذكره أن عدوى التثاؤب جعلت تتسرب إلى الحضور ، فأخذوا في الانصراف واحداً تلو الآخر . وهكذا سكت حديث الذهب والزيتون والأبنية والأطعمة ، فاستراح سمعي من هذا اللغو الثقيل لأول مرة تلك الليلة ، وانصرفت بدوري لأغالب أجفاني على النوم .

* * *

ما أدري أي دافع ساق قدمي هذا الصباح إلى حي الخندق ،

بعد أن استرحت من رؤيته ثمانية عشر شهراً . لم أنقل فيه خطوة واحدة منذ أن استأجرت هذا البيت الذي أنا فيه اليوم ...!

ولا ريب ان لذكريات الأمس يداً في هذه الحركة ، فقد رأيتني في الليلة الغابرة أعقد العزم على زيارة هذه العائلة لأستطلع خبر المريض ، ولأنظر مرة أخرى إلى وجه ذلك الطفل الأعمى ...

ولقد أحسست برغبة شديدة تحفزني على هذه النظرة ، كأنني أريد أن أتبين أثر الخمس السنوات في ذلك المخلوق .. كيف أصبحت عيناه الناتئتان الواسعتان ؟؟ ماذا عملت الأيام في ذلك الوجه الذي لم أبرح أذكر ما لمحتــه عليه من نضــارة الطفولة يومئذ ؟؟!

وأخيراً هل تستطيع الحياة أن تستمر على إفراغ النمو الطبيعي في ذلك الجسم ، الذي تعاون الفقر والرطوبة على الكيد له ؟!. أردت أن أعرف كل هذا .. وأردت أن أقف على جواب هذا التساؤل بنفسي ودون وساطة ..

وانتهيت بعد جهد إلى القبو الذي يسكنه (ا . ع) ، وهو نفسه القبو القديم الذي رجع إليه حين اضطره انهيار سقف المسكن الثاني إلى مغادرته . وأقول « بعد جهد » لا لأنني وجدت في أوضاع الحي القديم ما أضلني عن الطريق الذي قصدته ، فلم يكن من شأن هذا الحي أن يتبدل خلال هذه الأشهر ، فهو لا يزال كما عرفته أثناء حياتي الماضية ، بل لا يزال كما تركه عمّاره الأولون في العهد الصليبي .. اللهم إلا هذه المقاذر التي تستقبل المار في أزقته

ومنعطفاته . وإلا هذه الأسراب المتكاثرة من الأطفال يتجمعون هنا وهناك حول الكلاب . وقد اصطبغت وجوههم بلون أرضهم ، فعليها مثل ما على هذه من طبقات الأوساخ ومغريات الذباب . وقد انكشفت عوراتهم للهواء يخفق بها من خلال شقوق هذه الأطمار ، التي لا تكاد تعرف لها لوناً أصيلاً .. وبرزت على ملامحهم آثار الحرمان فتركت فيها خموداً أطفأ شعلة الطفولة . حتى توشك أن تتخيل نفسك أمام شيوخ من المرضى قد تقلصت هياكلهم في أجساد هؤلاء الأطفال !.

وإنما كنت مضطراً لبذل هذا الجهد من أجل أن أصبر نفسي على هذه المشاهد المؤذية . وعلى هذا النتن الذي لا بد من استنشاقه لمن انقطعت صلته بهذا الحي كما انقطعت صلتي ، وألفت رئتاه الهواء الذي ألفته .

ووقفت على باب القبو أصفق بيديَّ استئذاناً بالدخول على أهله . فسمعت صوت المرأة التي اعتدت سماع صوتها . أيام كانت تأتي بيتنا لتعاون امرأتي في شئونه . سمعتها تدعوني للدخول ، ثم سمعتها تعتذر لي ألا تجد شيئاً تقدمه لأجلس عليه . وكان متعذراً عليَّ أن أتبين مكانها في تلك الظلمة . إلا بعد أن ألفت عيناي المكان بعد دقائق .. ووجدتني في غير وعي أجيل طرفي في فضاء هذا الجُحر . فأرى هنا صحفتين من الفخار . وأرى هناك قطعة من حصير قديم تتربع المرأة على جانب منه . وعلى ركبتها طفل شبه عار أرسل نصف جسمه على الأرض . ونصفه الآخر على جزء من الحصير . وعلى يديها طفل آخر أخذ في البكاء

بصوت متقطع ينم عن اضطراب وسقم ، ولمحت على رأس المرأة بقية من ذلك الثوب القديم الذي أظنني رأيته على امرأتي ذات يوم ، وقد حجبت ببعضه وجهها وغطت شعرها ببعضه الآخر .

وسألتها عن زوجها فعلمت أنه قد نقله رجلان إلى المستشفى قبل قليل .. وترددت قبل أن أسألها عن طفلها الأعمى ، إذ خشيت أن يكون قد أصابه سوء فأوقظ في صدرها حزنها المنسيّ ، ولكني لم أستطع التمالك أخيراً فسألت عنه فإذا هو كما توقعت .. لقد مات منذ ثلاثة أعوام بعد أن لفظ رئتيه دما اسود كهذا الذي ينفثه بعض سكان هذا الحي الاخرين ...

في معركة الكوليرا

وقف « الحاج عبدالله » على مدخل المسجد العمري مستنداً بكتفه إلى ركن الباب الخارجي ، وقد جمدت يمينه على مقبض عصاه الغليظة ذات العقد البارزة ، وغرق وجهه الوضيء في غمرة عميقة من الذهول تترقرق في عينيه الصافيتين وفي تجاعيد جبهته العريضة ، على حين راحت أصابع يده الأخرى تتخلل على غير هدى خيوط لحيته البيضاء المسترسلة فوق عنقه في استدارة مهيبة .

وكان « الحاج » يفكر في هذه الأنباء التي تسربت الليلة إلى المصلين ، تحمل لهم أخبار « الهواء الأصفر » الذي بدأ يدخل طوره الجارف في المنطقة الموبوءة من حي الحراب . وكانت أنباء مزعجة تجاوزت كل ما ألفه سكان هذا الجانب السليم من مدينة طرطوس ، منذ أن فرض الحجر الصحي بين المنطقتين . ،

ولقد كان هؤلاء السكان في الأيام القريبة الماضية يستقون أنباء الوباء من حارس المنطقة ، ويتتبعون وقائعه من وراء الأسوار المطلة على مقبرة المدينة ، إذ يحصون عدد الضحايا الواردة إلى المقبرة .. ولكنهم وجدوا أنفسهم منذ عدة أيام مقطوعين عن

الحقيقة . بعد أن انصرف المشرفون على حالة الوباء عن دفن الأموات في هذه الجبانة . ليواروهم في رمال الشاطىء الجنوبي . . مما جعل هؤلاء الناس فريسة لمختلف الإشاعات . فبعضهم متفائل يرى في ذلك دليلاً على ضعف الوباء وصيرورته إلى النهاية . وبعضهم متشائم يرى في ذلك دليلاً على تفاقم الخطر . بحيث يضطر القائمين على منطقة الوباء أن يتخذوا الرمل مدفناً للضحايا . لسهولة نبشه ولتكاثر الوفيات . التي جعلتهم في مأزق جديد ؛ فلما وصلتهم أنباء الليلة وجدوا أنفسهم فجأة أمام الحقيقة المرة التي فطن لها المتشائمون من قبل . إذ بلغت المعركة ذروتها . وها هي ذي الضحايا تتراكم في أعماق الدور تكاد لا تجد من يشيعها إلى مقرها الأخير !.

وكان أهم هذه الأنباء يدور حول مشكلة اليد العاملة في مكافحة نتائج الوباء .

لقد هيمن البلاء على معظم بيوت المنطقة الموبوءة . فطرح الكثرة من أهلها في غيبوبة النزع . وشغل الآخرين منهم بالقيام على خدمة المصابين . حتى كان متعذراً أن تجد من يتفرغ لغيره ، أو يجرؤ على تشييع الموتى . سوى هذه الثلة من العمال الذين عهد إليهم بمهمة الدفن : وكثير من البيوت أغلق على سكانه أياماً ريثما تناله دورة التفتيش . فإذا جاء موعده رأى المفتشون أنفسهم أمام مجموعة من الموتى . قد مضت عليهم الليالي حتى أوشكت جسومهم أن تتفسخ !.

حتى أولئك العمال عمال الدفن أنفسهم قد جعل الوباء

يجتاحهم واحداً واحداً . فلم يبق منهم العدد الكافي لحفر القبور ولتجهيز الموتى . بل لم يبق منهم العدد الذي يكفي لنقل هؤلاء الضحايا إلى الرمل .

وكان على عاتق القسم السليم من البلدة إمداد ذلك الجزء الموبوء بالميرة اللازمة من الطعام والاكفان . يضعونها في مدخل المنطقة الحرام لينقلها المكلفون هناك إلى جماعة الاسعاف . ولكن بالرغم من العاطفة الكبيرة التي انتظمت هؤلاء السالمين نحو إخوانهم المنكوبين . وبالرغم من تلك الأخوة البالغة التي بعثتها الكارثة في نفوس الجميع . حتى جعلت منهم كتلة متعاونة على الإسعاف والإمداد . فقد كان مستحيلاً أن تجد ثمة من يجرؤ على التفكير باقتحام السور المضروب على منطقة الموت . ليصل بهذا التعاون إلى حد المغامرة بحياته !.

... وطال موقف « الحاج عبدالله » على مدخل المسجد يستحضر في خياله هذه الفواجع الدامية . ولم يعد في صدره أي متسع للشك في حقيقة هذه الأنباء الجديدة . لا سيما بعد أن أيدها كتاب رئيس البلدية الذي تلاه إمام المسجد على الناس إثر صلاة العشاء . يستصرخ حميتهم للإقدام على معاونة إخوانهم في دفن الموتى ..

وكان أشد ما يساور قلب الرجل من الألم في موقفه ذاك هو هذا الإحجام الذي ظهر على القوم إثر تلاوة الكتاب . فلم يحس منهم أي رغبة في الاستجابة لتلك الاستغاثة !.

ومن شأن الأزمات الكبرى أن توقظ أعماق الضمير الإنساني ، فترفع صاحبه إلى المستوى الذي يصله بالله . فتكون من بعض وجوهها جلوة من النور الإلهي تلفت أبناء التراب إلى حقيقتهم السماوية .. ولكنها مع ذلك تظل قاصرة عن الوصول بالنفس إلى حد التضحية بالحياة . إلا أن تكون هذه النفس من نوع آخر .. من نوع الجوهر الذي خلص بطبيعته من أوضار المادة ، فكان أبداً موصول الروح بذلك العالم القدسي ..

ولكن أنىَّ للحاج عبدالله أن يلاقي مثل هذه النفس بعد أن لمس ذلك الجمود المؤئس من المصلين !! لذلك كان عليه أن يستسلم إلى ألمه الصامت ، وأن يغيب في ذات نفسه ليفكر بالحل الذي تتطلبه المعضلة !

وجعلت الأشباح تتهاوى على مخيلة الحاج مخيفة مزعجة ....

لقد بدأت الوفيات قليلة لا تتجاوز الاثنين والثلاثة في الأسبوع الأول ، ولكنها جعلت تتواثب بسرعة ، حتى بلغت أرقامها السبعة عشر في مساء اليوم الماضي ..

ولقد كان عدد الحفارين والدافنين عشرة . فلم يترك منهم الموت سوى ثلاثة ....! فمن الذي سيعوض هؤلاء العاملين ؟! وكيف يمكن الإسراع بإيصال المتوفين إلى قبورهم ، بعد أن خلت المنطقة أو كادت ممن يستطيع التفرغ لهذا الواجب ؟!!

وأخيراً .. أي نازلة جديدة ستفاجىء الناس إذا بقيت هذه

الجثث في دورها لا يتيسر لها من يواريها التراب !!!.

وكاد القنوط يتغلب على قلب الرجل لولا بقية من الأمل لمعت في خاطره تلك اللحظة ، فترك مكانه من الباب . ومضى لوجهه يطرق أبواب بعض الشيوخ من أترابه الذين لم يحضروا الصلاة في هذا المسجد ، ليجرب آخر محاولاته لديهم . علّه يبعث في عزائمهم روح الإقدام على الدخول إلى منطقة الوباء .

ولم يكن في طرطوس من يجهل الحاج عبدالله أو لا يستجيب له إذا هو دعاهم إلى الخير .. فقد عرف هؤلاء في هذا الشيخ الوقور رجل برّ وإحسان ، وجهاد في الحق ودعوة إلى الله . لا يشغله عن ذلك شاغل من مال أو ولد .

عرفوه محباً للعلم فلا تفوته فرصة الاستفادة من رجاله ، يستمع إليهم ويستفتيهم في حدود الله ليعرف حلّه من حرامه ، ويستقصي أوامر الله ورسوله في كل خير دعوا إليه . ثم لم يكتف بذلك حتى أخذ نفسه بنشر هذه المعارف ، فافتتح مكتباً لتعليم الفقراء من صغار الأطفال إلى كبار الرجال ، يتلقون فيه القراءة والكتابة ، ويتعرفون أوامر الدين ونواهيه ، على يد معلم خاص أجرى له مرتباً من ماله ، وأحدث له مسكناً ومكتباً من ملكه ، فكان أول مدرسة أنشئت للأميين والفقراء في هذا البلد أيام لم يكن ثمة شيء من المدارس..

وعرفوه محباً للخير إذ يتفقد بنفسه اليتامى والأيامى يعودهم في ظلمات الليالي ليسعفهم بما تتسع له قدرته .

وعرفوه تقياً مقبلاً على العبادة داعياً إليها ، فهو لا يفتأ يساوم

تاركي الصلاة على ملازمتها . مقابل جُعالة معينة لكل صلاة ، حتى لقد استطاع ذات مرة أن يدفع بأحد العصاة إلى المثابرة عليها أربعين يوماً ، مقابل دابة اشتراها له من ماله . فكان لذلك أثر بعيد في نفس هذا المستهتر ، إذ ألف الصلاة حتى صارت له عادة لا سبيل لإهمالها ...

أجل .. لقد عرف الطرطوسيون كل ذلك في « الحاج عبدالله» فليس بينهم من لا يطوي قلبه على حبه ، وليس فيهم شقي لا يخجل من طلعة هذا الرجل إذا ما أطل عليه ..

ولكن ذلك كله كان أعجز من أن يقنعهم باستجابته حين جاء اليوم يدعوهم إلى الموت .!

* *

وكانت ليلة شائكة تلك التي قضاها الحاج عبد الله يومئذ ، فقد نبا به الرقاد ، وسيطرت على خياله الأوهام ، فكأنه يطل بعينيه على جثث الضحايا ملقاة في زوايا البيوت ، شاخصة الأعين جامدة الأطراف . قد انتفخت بطونها وتصاعدت روائحها .. وكأنه يطوف على المصابين تندلق أحشاؤهم ، وتخفت أصواتهم ، وتغور أعينهم ، فلا معين ولا مسعف ولا نصير !.

وتجمعت هذه الأطياف على مخيلة الشيخ حتى خيل إليه أنه يسمع صراخها يهتف به : « أن أقدم .. فليس من الأجل مهرب ، وليس في الوقت متسع للتفكير . ! ».

وتلفتَ إلى سنيه الثمانين تسرع في التواري وتمعن في التقلص ، فيرى أن العمر مهما امتد ، فلن يتجاوز لحظة صغيرة ، وأن البقاء

مهما حلا فلن يساوي لمحة من ساعة العرض على الله !.

وأكب على القرآن يقطع معه بقية الليل . فوجد نفسه مرة أخرى غارقة في جو تلك الأخيلة . فكأنه لا يقرأ من آياته إلا قول ربه : « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ...» « لا يستوي المجاهدون والقاعدون ...». « وتزودوا ... إن خير الزاد التقوى ...»

ولما ارتفع صوت المؤذن لصلاة الفجر إذا هو يترك البيت إلى المسجد . وقد عقد عزمه على أمر .. وحين انصرف المصلون إلى أعمالهم انصرف هو بدوره يجتاز الطريق برشاقة وبخطوات واسعة إلى حدود المنطقتين ... ولم يقف طويلاً هناك إلا ريثما رجا من الدركي الحارس أن يرسل إلى أهله خبر دخوله معركة الوباء ، ليندمج في العاملين على تجهيز الموتى .

*

وانقضت أربعون يوما تجلت بعدها رحمة الله على طرطوس ، فوقفت زحوف الكوليرا .. وانطفأت جمرة الوباء ، بعد أن كادت تحيلها مقبرة كبيرة ..ولا يزال هناك بقية ممن نجوا من براثنه ، يذكرون بلهفة ذلك الشيخ الذي كان يطوف بينهم ليشدد من ايمانهم . فكان عزاء المنكوبين وأنس المكروبين ..

وأرادت حكمة الله أن تديم عليهم ذلك العون إلى نهاية المحنة ، فحفظت لهم الحاج عبدالله حتى خاتمة المأساة ، فكان آخر ضحاياها ! .

وكانت جنازته يومذاك في طرطوس جنازة البقية من السلف الصالح .

لحظة رهيبة

ثلاثة عشر عاماً كرت على هذه الحادثة ، ولكن خيالها ما يزال ماثلاً في ذاكرتي ، لا يعرض لي مرة إلا أحسست قشعريرة تسري في أوصالي كلها ، وضحكة مجلجلة تنطلق من حلقي لا أكاد أجد قدرة على ردها !.

كنا يومئذ ثلاثة من الرفاق ، حططنا رحال الصيف في ظل إحدى الجوزات الضخمة من ساحة « الشيخ بدر » وقد خرجنا في نزهة جبلية على الأقدام ، نتخفف من عناء المدينة . ونستمتع بسحر الطبيعة ، يطل على النفوس من خلال هذه الأودية والهضاب . ومن تلك الاحتفالات القروية الساذجة . يقبل عليها سكان هذا الجبل من مختلف أنحائه ، ليوفوا نذورهم الجاهلية إلى مقام الشيخ «بدر» ، وليدفنوا شقاءهم في هاتيك الليالي الساهرة ، يحيونها بين الطبول والزمور والغناء ، في حلقات تنطلق بها نفوسهم إلى أقصى حدود المألوف في حياة القرية .

والشيخ بدر ، بوضعه القائم في وسط هذه الناحية يعتبر نقطة الارتكاز في حياة هذه القرى المحيطة به ، فهو محط رحال القادمين

والذاهبين . وهو بالنسبة إلينا نحن الطرطوسيين المصطافين : كعش الطير نتركه في الصباح لنجوب في مختلف أرجاء تلك البقاع ، حتى إذا أوشكت الشمس على الغروب أقبلنا عليه زرافات ووحداناً نستريح في فيئه . لنواصل تجوالنا في الصباح التالي .

وذات مساء عقدنا العزم على أن تكون وجهتنا في البكرة المقبلة « وادي العيون » ولم يكن الباعث لنا على هذا الاختيار ما سمعناه عن جمال هذا الوادي وحده . بل كان هناك سبب آخر ساعد على ذلك هو حب المغامرة .. فقد كان لوادي العيون أيامذاك شهرة بالغة حد الرهبة .. إنه مرتع اللصوص ومسرح المجرمين من أهل الشقاوة وقطاع الطرق ، وهو فوق ذلك مركز المبشرين الجزويت ، الذين اتخذوا من مزايا سكانه وجرأتهم الخارقة وسيلة للتهديم في بناء الصرح الوطني . الذي يجاهد لتشييده كل هؤلاء النفر من طلاب الوحدة السورية .

وفي المغامرة لذة تستهوي النفوس الشابة . فما إن بزغ فجر ذلك اليوم حتى كنا نقطع الطريق المنسابة في أعالي تلك الهضبات. لنريح أجسامنا بعد ثلاث ساعات في ظل دوحة وارفة من ساحة المزارات القائمة على مدخل الوادي ، وقد أخذنا مقيلنا على مقربة من مجرى « بيت شلهوب » الدافق في طريقه . من السفح الأيسر إلى بطن الوادي الأخضر .

*

كان أحد ثلاثتنا فتى من أبناء أحد الطرطوسيين المولودين في

المهجر البرازيلي ، لم ينقض على وصوله البلاد بضعة أشهر ، فهو لا يحسن العربية إلا بضع كلمات ، قد أوتي صوتاً غريباً أشبه بمواء السنانير ، لا يكاد السامع يتبين حقيقته إلا أن يقع نظره على صاحبه .. وهو فوق ذلك متعصب لأميركيته ، لا يعجبه عجب من أوضاع هذه البلاد وعاداتها ، فلا يرى شيئاً ولا انساناً إلا أخذ يبادهك بانتقاده وامتعاضه ، وكانت لغة التفاهم بيني وبينه الفرنسية المحطمة ، أتخذ منها وسيلة لتصحيح رأيه في مرئياته ، فيصغي إلي بانتباه عميق حتى صار يألفني ويستفتيني في كل ما يشكل عليه .

وكنا على جهد من مشقة الرحلة ، فأردنا معالجة تعبنا بغفوة نستسلم اليها ، تحت خميلة من السنديان تظلل أحد المزارات المكشوفة . فمهدنا هناك مكاناً لجسومنا ، وجعلنا من بعض الحجارة وسائد لرؤوسنا ، ولم أنس أن أطمئن إلى أمر هذا البرازيلي ، فسوَّيت له مضجعاً بيني وبين رفيقي ، وأوصيته بألاّ يفارقه قبل نهوضنا . ولم أنس أيضاً أن أنبهه لِخطر المزارات ، بعد أن لفت نظره إلى هذه الودائع التي يجعلها القرويون في جوارها ، ليحفظوها من سطوة الطامعين الذين لا يجرأون على الدنو منها – مهما بلغت حاجتهم ، ومهما ساءت أخلاقهم – حذراً من غضب أصحاب القبور ! .

واستغرقنا في نومة لذيذة يضاعف من متعها ذلك النسيم الرقراق يداعب وجوهنا ناعماً رخاء ، وذلك الخرير يوقعه على أسماعنا مجرى النبع القريب ناعشاً رتيباً ، وما أدري مدى الوقت الذي

قضيناه في هذه الغفوة . غير أن الذي أذكره أن الانتباهة كانت مباغتة مزعجة ، فقد فاجأ آذاننا وقع مواء غريب تلفه ضجة كبيرة من أصوات أخرى، يختلط بها تقصف الأعشاب اليابسة.. وما هو إلا أن فتحنا أعيننا حتى وقعت على الحقيقة الرهيبة !.. بضعة عشر رجلاً يحملون العصي والفؤوس وأمامهم هذا الأعجمي يركض على غير هدى وهم يطاردونه ويشتمونه !.

وما كان في الموقف متسع للتفكير ، إذ كان على كل منا أن يدرك لفوره أن خطراً مجهولاً قد وقع ، وان عليه أن يتداركه بتدبير مرتجل يقيه شر العاقبة ، التي لن تكون غير الموت في وادي الموت !

وكان رفيقي الآخر ممن يتهمونني بالاستبداد في المدينة . إذ يرى بي — على زعمه — نزعة آمرية تتجاوز حرية الرفاق في الأعمال المشتركة ، لذلك يأبى عليّ أن أقطع أمراً دون مشورته . ولكن مثل هذه الملاحظات لا قيمة لها في موقف كهذا . لا يغني فيه شيء كالاستبداد ، لذلك ما لبثت أن تقدمت من القرويين الثائرين . وألقيت عليهم هذا السؤال الشاغل الذي صرف اهتمامهم كله إليّ :

ماذا صنع هذا المجنون ؟؟؟

— مجنون !!!

— أجل مجنون ، وقد جئنا لمعالجته بجوار هذه القباب المقدسة!.

وكأنما أنا لم أقل كلاماً ، وإنما أطلقت مخدّراً ، ما لبث أن

عطل فاعلية هذه الغرائز الهائجة . فإذا العصي ترتمي ، وإذا الفئوس تجر على الأرض ، وإذا بهؤلاء القرويين المخوفين يتحولون خرافاً وديعة تحدق بنا في كثير من اللطف والنعومة . لقد أيقنوا أنهم تلقاء أمثال لهم من المؤمنين بهذه القبور يقدسونها إلى حد يدفعهم لقطع المسافات من أجل بركتها !. وراحوا يرسلون إلى البرازيلي نظرات من العطف البالغ لا نجد لها وصفاً في غير معجم الأخوة !.

وأردت أن أمكن في أذهانهم هذه الفكرة فقلت : لقدأصاب المسكين مس أذهب وعيه وعقد لسانه ، فهو كما ترون لا يحسن النطق إلا مواء كصراخ القطط ، وقد كان من أثر هذه القبور أن أطلقت من لسانه حتى جعل يحسن بعض الكلام .. ونرجو ألا نعود به إلا وقد شفي تماماً ، وعاوده وعيه ونطقه ..!

وكان الفتى قد أنهكه الخوف ، ورأى من مظاهر القوم ما يبعث على الاطمئنان فارتمى على مؤخره في جذع سنديانة قديمة ، وقد جعل صدره يعلو ويهبط من التعب والجزع والأمل ، فكان في مظهره الجديد ما أيد دعواي في جنونه !.

وخشيت أن يطرأ على الموقف ما يدعو إلى الشك ،فاستطلعتهم نبأ الحادث الذي هاج ثورتهم ، فإذا هم يقصون عليّ هذا الخبر المخيف حقاً :

لقد فاجئوه يبول في فناء هذا القبر القريب !! ويا لها من جريمة !.. انها بلا شك أغلى ثمناً من هذه الرؤوس التي نحملهانحن الثلاثة !.

وكان عليّ أن أمثل الدور البارع الذي يقتضيه هول النبأ ، فضربت يداً بيد . وأرسلت صفيراً طويلاً . ثم أشرت لرفيقي أن يتبعني إلى القبر المهان ، وهناك خلعت حذائي وولجت الفناء في تخاشع . وطلبت إلى رفيقي أن يهيء لي طاقة من عشب أخذت أكنس بها تراب الضريح .. وفعل رفيقي مثل ذلك .. ووقف القرويون يشخصون إلى عملنا في دهشة ورهبة . ولم أكتف بذلك : فدعوت أحدهم ثم نقدته بعض النقود ليأتيني بالبخور من أقرب حانوت ، ولم يمض على ذلك سوى دقائق معدودة حتى كانت سحب البخور تتصاعد من الأجران الصغيرة القائمة على زوايا الضريح الأربع !.

وكان هذا كافياً لتثبيت الثقة بنا في نفوس القرويين ، وللاقبال علينا بالاعراب عما في قلوبهم من الحب ، فإذا الضيافة تنهال علينا من مختلف بيوتهم .. وإذا بالنفوس ، التي طالما سمعنا عنها أساطير الاجرام ، تنكشف لأعيننا عن نواح ناعمة كريمة كأنها بنفسها نفحة أخرى من عبير هذا الوادي الساحر .

ورجعنا يومئذ من تلك الرحلة وفي صدورنا نشوة لا حد لها من الفرح بالحياة .

وكنت أنا أوفر الجميع حظاً من تلك السعادة ، إذ وجدتني أَزهو على رفيقيّ بهذا الذكاء الذي تنزّل عليّ فجأة ، فأنقذنا جميعاً من شر تلك اللحظة الرهيبة .

البعوضة الكافرة

كانت بعوضة في كل شيء ، جناحيها الهزيلين ، وحمتها المستدقة ، وهيكلها الضئيل ، وساقيها المديدتين . ولكنها لم تكن لتؤمن بهذه الحقيقة ، فهي تحاول أن تخلق لكل شائهة منها تأويلا يخرجها عن سبيلها المطبوع ، ففي قوادمها صورة من «أقدام الآلهة» وفي جناحيها «رمز من بصاق الشهب» وفي بوقها العجيب مظهر من « خيوط الفجر » النائر.. أما عزيفها البغيض فليس ثمة ما يشاكله ولا ما يساوقه فتنة وسحراً في مواهب الكون جميعاً .

ذلك ما كانت تردده على نفسها كلما وقعت على حافات المستنقع الوبيء لتمرغ وجهها في مقاذره ، وكان هذا العزيف أشد ما يفتنها من ملكاتها فلا تفتر عن إرساله كلما جنها ليل أو احتواها نهار ، كأنما تبتغي أن تلفت إلى ترجيعه كل شيء ، حتى لتخيل إليها الحمى الدائمة أن هنالك كائنات خفية تستلذ صليلها المزعج ، فهي لا تنسى أن تطالبها بثمنه من الإعجاب !

وكانت ذلك اليوم على أشد ما ألفت من جنون البعوض ، فلما زلزلها الزفيف المنسرب من أجنحه الفراشات السابحة انقطعت عن

عزيفها ، وجعلت تتبع السرب النشوان بعينيها الخزراوين ، فيروعها ذلك البريق الخاطف « يتراقص في العراء » على أشعة الشمس فوق أرديتها الذهبية ..

وما هي إلا كلمح البصر حتى وجدت نفسها مسلوبة العقل تتهافت على أثره بقوة مجهولة تريد أن تتبين عن كثب مبعث هذا الالق الفاتن يجلبب جوانب السرب . وعندما حطت إحدى الفراشات على ثغر الزنبقة أسفّت هي بدورها على الجذع ، تتسرق النظر إلى ذلك النثار المتطاير من أطراف الأردية العليا . ولم تلبث أن نشرت جناحيها الحقيرين ، تتهيأ لاستقبال هبوات من الذرور الضاحك ، تلون بها أسمالها الترابية الكالحة !

وكان لها ما تمنت فإذا جناحاها الأغبران مضمخان بطبقات مشوشة ، من مثل الأصباغ التي طالما تنورتها على محاني قوس قزح في نداوة السماء . ولم يعد الفضاء بمتسع لأماني هذه البعوضة فاستسلمت إلى النسمة العابرة تود لو تنطوي لها الأبعاد ، فتبلغ في خفقة الطرف مقاذر المستنقع . لتقف على ذلك الروث المركوم تنفخ في صورها معلنة جمالها الجديد !

ولكن ... ما أسرع ما يموت الحلم !. فقد ذهب الهواء بالدهان المعار ، ورجعت كما بدأت بعوضة لا لون لها ولا ألق ولا جمال !

* *

كفرت البعوضة وأخذت تقذف السماء بسبابها المحنق ،

تحسب أنها ستثيرها فإذا « السماء منفلقة » وإذا منجل الفناء يرعفه اللهب على « أضالع المسكونة » فيقضي عليها ، ويذهب الخراب الشامل بتلك الفراشات التي جنت على آمالها وطمأنينتها ! . غير أن السماء لم تنفلق ، والأرض لم تزل ، فكان عليها أن تفكر لعلها تعثر بذلك المورد الذي أفاء من روائعه على السرب ، فتعود بنصيبها من مفاتنه .

ومكثت تفتح أذنيها وترهف خرطومها تترقب ذلك الزفيف الأول ، وما حمله إلى مسامها الحادة من مناسم العبير .

وخفقت أجنحة السرب كرة أخرى ، وتسارعت في إثره ، وما هي إلا دفعة يسيرة حتى ألفت نفسها على مقربة من مخلوق جبار : قد أخذ مجلسه الرفيع بأزاء لوحة على صفحتها المونقة كل شيء من مفاتن الأرض ، في كل لون من مباهج الأفق ، وإذا الفراشات يحططن على منكبيه وفوق رأسه وبين يديه وعلى أطراف لوحته .. أما هي فلم يكن في طوقها ، وقد بصرت بذلك المنبع المنشود ، أن تتمالك وعيها فقذفت بنفسها إلى مجتمع الأصباغ من اللوحة فإذا هي مدفونة في غمرة الدهان ، ثم إذا هي قد فقدت القدرة على الحركة ..وانطفأ رشدها لحظة يسيرة ، ولكنها طويلة في عمر البعوض ، ثم رجع إلى جسدها دبيب الحياة ، فنظرت إلى نفسها جاثمة على جانب من اللوحة ، وقد عملت في جناحيها الهزيلين ريشة ناعمة دقيقة مرهفة من يد الرسام الجبار ، الذي لامس مكمن الرحمة الواسعة في نفسه منظر بعوضة تهلك بين يديه ، فانتشلها ، ثم شاء له شذوذ الفن أن يعابث رداءها ، فجعل يكسوه

من صورة الفراشة ، حتى اكتمل له مشهد بدع : جناحا فراشة على هيكل بعوضة !..

وحين جف صبغها أرادت أن تجرب طبيعتها الأولى فإذا هي ترف في جهد ، وتخونها القوة فتسقط خائرة على حذاء الرسام .. وهناك حانت منها التفاتة فرأت صورتها الطريفة في صفحة حذائه اللامع ، فأخذتها نشوة من الفرح أذهلتها عن كل شيء وأنستها كل شيء ، إلا أنها ترتدي ثوب الفراشة . فمضت تتبختر في أرجاء المرسم ثم هبطت على طرف اللوحة وجعلت تتأمل :

لقد أيقنت أنها قبضت بأظافرها على أزمة القدر ، ففي وسعها بعد اليوم أن تذل ما شاءت على جماعة المستنقع ، وأن تزعم لنفسها حق التفوق ، وأن القدر الأعلى قد اختارها لحكومة الأرض .

أما المعجزة فهذا الأرجوان المذهب الذي تحمله من أثر « الاغتسال بدماء الشمس » ولن يضيرها أن لا يكون في الأرض من يفهم « دم الشمس [١] » فهي ستقول كل هراء مبتكر . وحسبها ذلك معجزة !

ولكن .. لعل بعوضة تمر بهذا المرسم ، فتقف على كنه الأمر ، فإذا كل واحدة تحمل مثلها ذلك الرداء المسحور !

ذلك هو الخطر الأكبر ... إذن فليمت الرسام !

وشرعت تتفرس من مكانها في وجه الجبار وفي صدره وفي

(١) كل ما مر بين الأقواس فهو من كلام (البعوضة) المنشور في بعض الصحف .

يديه وقدميه .. فلما رأت الى مخرج النفَس من أنفه خيل إليها أنها أدركت الغرض ، فإذا هي تندفع في غير وعي إلى منخره تريد أن تسد عليه مذاهب الهواء فيختنق فيموت !

ولكن .. مسكينة .. !

لقد مست من خياشمه موضع الحس فإذا هو يعطس . وإذا هذه العطسة ملقية بالبعوضة بين يديه في قطرة صغيرة غير أنها كافية لإغراقها .

نظر الرسام إلى البعوضة تختلج في مغرقها . فتصادمت في قلبه عوامل الشفقة وعوامل العدالة .

قالت الشفقة : « انقذها إتماماً لفضلك »

وقالت العدالة : « بل دعها إلى ما جنت . إن يديك هاتين هما اللتان ابتدعتا جمالها . ولك أن تتصرف به كما تشاء . »

فتحركت قدم الجبار . ومر بحذائه الضخم على القطرة الصغيرة . فإذا هي ممسوحة كأن لم تكن . وإذا هو يعود إلى عمله كأن لم يحدث شيء ! .

ثمن الحرية

لا أذكر بالضبط كيف تم اتصالي بهذا البيت لأول مرة ، ولكن الذي أذكره أن صلتي به قد استحكمت منذ أربع سنوات ، وقد انقضت السنتان الأوليان منهما في تواصل مستمر . فما أذكر أني هبطت دمشق مرة دون أن أمرّ بهذا البيت لأتفقد حال أهله ، وكثيراً ما كانوا يمسكونني الأيام المتواليات أقضيها في ضيافتهم مكرهاً أو مختاراً . على أني كذلك لا أذكر أني قضيت ضيافتي هذه مرة وأنا مرتاح إليها . وما كان ذلك لقصور في الإكرام ، فمن الحق عليّ أن أعترف بأنني لم ألق إكراماً قط كالذي كنت ألقاه في هذه الضيافة ، ولكن الذي أشكوه إنما هو تلك الخلافات الناشبة أبداً بين الزوج والزوجة ، والتي كانت تحيل إقامتي لديهم محكمة مستمرة أكون فيها حيناً الشاهد وحيناً القاضي وحيناً الخصم ...

وكانت معرفتي بالزوج لأول مرة في بيته بدمشق . إذ قدمتني اليه امرأته على أنني صديق أخيها الحميم ورفيق طفولته ، وأنني العالم الكبير والأديب الخطير والشاعر النحرير !.. إلى آخر

هذه الألقاب المدويّة ... وما كان يهم الزوج أن أكون رفيق أخيها . ولكن الذي أهمه تلك الصفات الأخرى التي اسبغتها عليّ من العلم والأدب والشعر .. فقد كان الرجل من هواة الأدب . بل كان من الإيرانيين الذين يحسنون نظم الشعر بلغة « السعدي والفردوسي ».. وكان إلى ذلك متعصباً لجنسيته الفارسية يرى الشعر الإيراني خير شعر العالم ، وينظر إلى التقاليد الإيرانية نظرة التقديس لأنها في نظره خلاصة أفضل تاريخ للانسانية .

وكان علمه باللغة العربية ضعيفاً محدوداً ، فإذا قرأ لي مختاراته من أشعار الخيام وجلال الدين الرومي وغيرهما من أدباء فارس عمد إلى شرحها بخليط من الفرنسية الراقية والعربية المحطمة . التي لا تتعرف ضمائر الذكور في صيغة الخطاب .

وكان يلذ لي أن أستمع منه إلى تلك المختارات سواء في لغتها الأصلية أو المترجمة ، إذ كان يفرغ عليها من حركته وإشارته ونغمته ما يوصلها إلى النفس موحية بكل ما اختلج في صدور أصحابها من المشاعر .. وكثيراً ما كان يقرأ لي من شعره الفارسي فأحس من خلاله نفحة شرقية لا تختلف عن هذه النفحات التي أحسها في أشعار أولئك الفحول ، والتي تحتفظ دائماً بطابعها الروحي الممتاز .. فأود لو ينقضي كل أيام لقائي له في مثل هذه المناجيات بعيدة عن ذلك الصخب . الذي لا يلبث أن يثور بينه وبين زوجته فيردني إلى تلك الدنيا التي لا يرتاح الفن اليها والشعر .

أما الزوجة فقد عرفتها من قبل عشرين سنة أيام كانت تعيش في بيت صغير مع والدتها وجدتها وأخيها على مقربة من دارنا في

طرطوس ، وكانت لا تزال محتفظة ببعض ملامح الطفولة التي عرفتها بها يومذاك ، إذ كانت بالنسبة إلى معظم أطفال الحي أشبه بالزهرة الناضرة في رمال الصحراء : عينان واسعتان فيهما شيء من زرقة البحر ونقاء السماء في صبيحة صاحية . ووجه صفا أديمه وانسجمت تقاسيمه فهو يروعك كيفما نظرت إليه ، ولم تزدها السنون الثلاثون إلا استمراراً في ذلك التكوين الذي استكمل نموه ونضجت فيه عناصر الأنوثة .. حتى تلك الحلى التي كانت تُدل بها أمس على أترابها الأخريات لم تزل تكسو يديها . ولكن في أناقة جديدة تتلاءم مع وضعها الجديد ..

وكنت قد رأيتها قبل ذلك في بيروت . حيث استقرت مع والدتها بعد عهد الطفولة . وكانت تدرس الطب في أحد معاهدها . فلم تدعني حتى تناولت الغداء في ضيافتهما .. وحدثتني الوالدة يومذاك عن شاب إيراني يدرس الهندسة كذلك في أحد معاهد بيروت الأخرى ، واستشارتني في أمر زواج (بهيجة) منه إذ هو يلح بخطبتها ..

ولم أجمجم في الرد على تلك الاستشارة فقلت لها : مع أنني بحاجة إلى معرفة الرجل شخصياً حتى أحكم عليه ، فإنني أرى ألاّ تسرعي بالقبول ... ذلك لأن الاختلاف في التقاليد القوميةبين الزوجين كافٍ لإضعاف الأمل بهناءتهما ..

ولكني وجدت منها إصراراً على الأمر بعد أن ظفرتْ بموافقة أخيها ، ولم أكن على شك في تفكير هذا الرفيق ، فأنا أعرفه شديد الوعي يقاب الأمور قبل أن يدلي بحكمه عليها .. وهو لن يوافق على

هذه العلاقة إلا بعد أن يستيقن من صلاح الرجل للتزوج بأخته ..

وتركت لها البت في الموضوع دون أن أتنازل عن رأيي ، ثم ما لبثوا إلا ريثما أنهت بهيجة دراستها حتى عقد الزواج .. وكان أن تألف من ذلك الزواج هذا البيت ..

وتلقيت ذات يوم برقية بتوقيع بهيجة تلح فيها بحضوري سريعاً ، وكان طبيعياً أن يتجه فكري إلى حصول خلاف شديد مستحكم يدعوني من جديد إلى استئناف تلك المحاكمات التي كدت أنساها ؛ ولم أجد نفسي قادراً على إغفال هذا الطلب أو الاعتذار عن استجابته ، فرتبت حقيبتي لأكون عندهم في اليوم التالي .

وكان الخلاف كما توقعت من نوع لا سبيل فيه إلى الاستغناء عن وجود حَكَمٍ .. على أن مرده هذه المرة لأسباب جديدة لم أكن عرفت منها شيئاً قبل اليوم .

لقد وجدت البيت في وضع غريب . فليس فيه ذلك الترتيب الذي عهدته في أثاثه وآنيته ، حتى هاتيك الأُصُص المنسقة على شكل دائرة في البهو قد بدا عليها الاضطراب ، فأكثرها محطم الجوانب ، ومعظم أوراقها ، التي كانت ترتفع من حولها كالحراب المسنونة ، قد تمزقت وقُطعت أوصالها فلم يعد لها ذلك الزهو الممتع ..

وبالاجمال كان البيت أشبه بميدان حرب إثر معركة ..

وأرهفت سمعي إلى الزوجين يقصان قصتهما : وكان متعذراً عليّ أن ألزم كلاً منهما السكوت بانتظار دوره إلا في مشقة ..

وجعلت همي استقصاء العوامل الجديدة في نشوب الخلاف. فإذا أنا أمام هذه المعضلة المعجزة :

لم يعد الخلاف ، كما عهدت وتوقعت ، متأتياً من تباين التقاليد القومية ، وما يستتبع ذلك من ازدراء الزوج الايراني لنسبة زوجته العربية ، بل أصبح الآن في صبغة دينية دونها كل صبغة سابقة .. إنه صدام مسلح بين الاسلام والبهائية ! .

أجل .. لقد كان الرجل بهائياً من أتباع تلك النحلة التي ابتدعها ذلك الرجل الايراني الملقب بـ (الباب) في أواخر القرن التاسع عشر ، ثم تبناها مريده الآخر الذي لقب نفسه (بهاء الله). وهو يريد زوجته على التخلص من كل أثر للاسلام ، لتفرغ إلى اعتناق هذه البدعة الجديدة دون قيد أو شرط !

ولم يكن من اليسير على (بهيجة) أن تستجيب لزوجها بسهولة في هذا الأمر ، فالقضية ليست قضية طعام أو ثوب أو طراز من السكن يفرض عليها ، ولكنه قضية انقلاب ماحق ساحق يقتضي أن تخلع مشاعرها جميعاً ، وتنزع وجداناتها التي نشأت على استيحائها قرابة ثلاثين سنة ونيف ، كما تخلع جوربها لتلبس غيره ، وكما تنزع رداء لتستبدل به رداء آخر !

وصحيح أن بهيجة لم تكن من اللواتي يأخذن أنفسهن بشعائر الاسلام ، فهي لم تعتد هذه الصلوات الخمس في اليوم والليلة ،

وليست على صلة مستمرة بالقرآن تتلوه كل يوم . وهي لم تحضر أي درس ديني بعد مغادرتها المدرسة الابتدائية ، حيث لم يكن للدرس الديني من أثر عملي في حياتها ، وقد كان يسيراً عليها أن تقطع صلتها بكل هذه المظاهر الإسلامية الأخرى بعد أن جرفها تيار المدنية الغربية . فجعل من بيتها صورة كاملة لما تقرؤه عن فنون الترتيب المنزلي في المجلات الفرنسية ..

أجل .. لقد كان في وسعها أن تقطع صلتها بكل هاتيك المظاهر ، التي تفرض نفسها على المسلم حين يكون معنياً بشعائره ، وباستيحاء أصوله المدنية ، ولكنها لم تكن قادرة قط على أن تفهم كيف يكون فلان (البهاء)وصاحبه (الباب)أفضل من (محمد) .. وأن يكون كتاباهما (البيان والايقان) أفضل بما لا يقاس من (القرآن) الذي درجت منذ طفولتها على تقديسه ! !

ثم هناك أشياء لم تستطع أن تدخلها في حياتها بمجرد رغبة ذلك الزوج .. إنه يريدها ألاّ تقيم أي وزن للحلال والحرام ، والنجس والطاهر ، وأن تحل محل ذلك مقياسَ البهائية الجديد الذي لا يعرف إلا (النافع والضار).. فالخنزير من الطيبات ما دام خالياً من الميكروبات أو ما دامت النار قادرة على تطهيره ، والخمر شيء ضروري لا غنى عنه ما دام يحتوي على الغَول المطهِّر إلا أن يبلغ حد الإسكار .. والصيام إنما يكون على الطريقة البهائية تسعة عشر يوماً من غير رمضان . وهو صيام غير صيام المسلمين .وو.

وكيف تسيغ لحم الخنزير وهي اعتادت ألا تذكره إلاّ مردفة اسمه بالشهادتين ! أو كيف تسيغ الخمر أو تقبله في

بيتها وهو نجس لعن شاربه وحامله ! ثم كيف تستطيع إهمال رمضان وهو العبادة العملية الوحيدة التي مارستها معظم حياتها ؟!.

ومع ذلك كله فهي قد آثرت التظاهر بالبهائية . وجعلت تحضر عبادة زوجها في المحفل الخاص . ما دام هذا هو السبيل الوحيدة لسلامة العائلة . وما دام لا غنى لها عن هذا الزوج بعد أن ربط بينهما القدر إلى الأبد بهذين الولدين .. ولكن الرجل لم يرضه هذا التظاهر من زوجته ، فما كان بد لها من المضي معه إلى آخر الشوط .. إنه يريدها أن تتمرس بكل ما يشذ عن أخلاق المسلمين . وأن تكفر بكل مقدساتهم ، وهذا هو الشيء الذي لم يكن بمستطاعها ، بل هذا هو الشيء الذي أحدث ما لم تكن تتوقعه من نفسها يوماً ..

لقد رأت نفسها مدفوعة في غير وعي إلى الاستسلام لرد فعلٍ عنيف . فهذه المرأة التي بعد العهد بينها وبين « القبلة » قد أخذت تنهض للوضوء والصلاة كل فجر ، ثم لم تلبث أن اشترت نسخة من القرآن لتتلو منه صباح كل يوم ..

وجاء رمضان وجاءت معه الكارثة ، لقد أصر الزوج على أن تفطر فأبت هي إلا أن تصوم ، وصار لها لذة في معاندته ، فهي لم تكتف بالصوم بل عمدت إلى الإكثار من تلاوة القرآن .. وزُين للرجل أن يحطم كبرياءها دفعة واحدة فاختطف المصحف من يدها ورمى به الأرض !. وجن جنون المرأة فثارت بالرجل تنشب أظافرها في وجهه ، ولم يجد هو سبيلا للانتقام منها إلا أن يعمد

الى الآنية فيحطمها تحطيما . وإلى الأثاث فيبدده تبديدا ..

*

وقصت علي الزوجة . وهي تشرق بدموعها : كيف تجمع عليهم الجيران يومئذ . وكيف انطلق لسانه ببذيء الكلام يرميها به دون حساب ، وكيف ألف هذا الشذوذ من بعد حتى صار ديدنه كل يوم . بل جاوز ذلك إلى أن جعل يبيح لنفسه أن يتهمها بالمنكر !! ..

ونظرت إلى ولديها وهي تجهش وتقول : لقد احتملت عذاب عدة سنين رحمة بهذين الطفلين ، وها هما يلقنان اليوم هذه الرذائل ، ويشهدان بأعينهما هذه المعارك ، فيهيئان لحياة ما أكاد أتخيلها حتى يجمد الدم في عروقي .. انظر إلى (شيرين) كيف يبدو في عينيها القلق والاضطراب ، كأنما تتوقع أن يتداعى عليها البيت بين اللحظة والأخرى .. لقد جمدت في صفها المدرسي سنتين وخسرت كل ذكائها القديم نتيجة هذا النكد المستمر .. وليتك تسمعها في خلواتها تضرع إلى الله أن ينقذها بالموت ..أليس من الكفران أن ألقى كل هذا في بيت أذيب نفسي في سبيل هناءته ، ومن رجل أنفق نتاج جهدي عليه وعلى ولديه !! .. »

وعنف الرجل في الرد على امرأته كأنه خجل أن تطلعني على كل هذا وحاول أن يكذبها في كثير مما ادعته . ولكنها لم تحتمل فراره من مواجهة الواقع ، فأخذت تسرد أحداثاً لا يطيق ردها ، وتعرض من تهمه المنكرة ما لم أستطع الصبر على سماعه ، إذ كان

في هذه التهم ما يتناول كرامتي شخصياً .. فأحسست شعوراً من الاشمئزاز لم أقدر على كتمانه ، ووجدتني أحدق في وجه ذلك المخلوق فيبدو لي أقبح منظراً مما عهدته .. لقد رأيت تينك العينين وكأنهما تزدادان استدارةً واحمراراً ، وبصرت بذلك الأنف المثلث وكأنه يمتد إلى غير نهاية . وبات صوته الأجش الذي يشبه المُواء أشنع وقعاً في نفسي من كل ما تصورت !. فلم أجد سبيلاً للتخلص من ذلك الجو إلا الانسحاب ؛ وتركتهم يومذاك على موعدة بأن أرجع إليهم في المساء ، ولكني لم أف بوعدي لأنني ألفيتني غير قادر على البت في هذه المشكلة قبل أن أعود إلى رأي رفيقي (محمد) الذي جازف بأخته في هذه المغامرة قبل عشر سنوات .

* *

لقد مضى على ذلك اليوم ستة أشهر ، وكنت أحسب أن الحالة بين الزوجين قد عادت إلى شيء من الاستقرار بما قام به رفيقي من إصلاح شاده ، بزعمه ، على أساس جديد ، إذ وضع لهما ميثاقاً مكتوباً يحدد لكل منهما ما له وما عليه ..

ولم أكن أفكر بزيارة ذلك البيت الذي سئمت رؤيته ، عندما كنت بالأمس في أحد أسواق دمشق أقتل بعض الوقت بالنظر إلى معروضات الباعة وزحام الناس ، فإذا امرأة تهزّ ذراعي وتأخذ في لومي على إغفالي زيارتهم ، وكانت المرأة والدة بهيجة .

ولم أجد بداً من مرافقتها إلى البيت ، ولكنه كان بيتاً آخر

غير الذي عرفته من قبل ، لقد اختلف موقعه ، فهو في حي آخر ، واتسق أثاثه وانتظمت أُصُصه ، فلم يعد فيها من أثر لذلك الحطام الذي رأيته في دارهم لآخر مرة .

واستقبلتني بهيجة بذلك البشر الذي فارق وجهها بالأمس ، وقد اكتست حلة جديدة من نضارة أعادت إليها ما ذكرني طفولتها الرغيدة ، وكان صوتها مغموراً برنة الفرح عندما ألقت علي هذا القول : ألا أستحق تهنئتك ؟ ! لقد تخلصنا نهائياً من الجحيم ..»

وأدركت ما تعني ، وعرفت أنها تخلصت من الرجل ، ولكني لم أستطع أن أجيبها بشيء ، لأنني كنت مشغولاً عن الكلام بهذين الطفلين اللذين أحاطا بي ، وقد نطقت أعينهما بانكسار عميق حزّ في نفسي ، فضممتهما إليّ وسألت صغيرهما :

«ألست مسروراً يا رستم؟!.»

وكم كان جوابه مفجعاً عندما قال لي بلهجة فيها من الوعي والحزن ما لا أعهد مثله في كلام طفل في الخامسة : «كلا ! إنه سيأخذني وأختي .. سيأخذنا غداً» وأعقب ذلك تنهدة طويلة !..

وعلمت فيما بعد أن بهيجة لم تستطع الخلاص من جحيمها إلا بعد أن وافقت على تقديم ولديها قربان الفداء ..

لقد آثرت الحرية ، ولكنها دفعت ثمنها غالياً .. !

أبو طافش

كان اسمه احمد حسب الهوية ، ولكن أهله وأهل حيه ، على دأبهم في تدليل الصغار ، كانوا يدعونه حُميَدْ .. وظل له هذا الاسم حتى التحق بخدمة أحد المقاهي البلدية ، فإذا هو يُسلب اسميه كليهما ، ليُكسى هذا الاسم الغريب الجديد (أبو طافش) !.. وكان ذلك أمراً طبيعياً في وسط كهذا لا يكاد يحتفظ واحد منهم باسمه الأصلي فيه . وليس ضروريا أن يكون للاسم الجديد معنى مقصود . وإنما الغرض كما يبدو هو مجرد التغيير . ثم أن تكون حروف الاسم على شيء من الغرابة والقسوة لتوحي إما بالهزل السوقي ، وأما بالشدّة التي يرشح لها صاحب الاسم ... ولعل في تخصيصه بأبو طافش اختياراً متعمداً لهذه الغاية ، ذلك لان صاحبنا هذا يمتاز على أقرانه من الأحداث بالقوة الجسمانية ، والقسوة الخلقية معاً .. فهو لا يعرف الهدوء ، ولا يحسن الارتفاع بكلامه عن مستوى الزقاق الذي عاش فيه واكتسب خصائصه .:

ومن شأن أقل الأشياء أن يثير انفعاله فينطلق لسانه بأسوأ الشتائم وأقبح التجديفات ... ولم يكن هذا مما يزعج عارفيه من

نزلاء المقهى . بل ربما يسرهم ويثير إعجابهم . لأنهم لا يختلفون عنه في شيء من ذلك . بل انهم يتنافسون في هذا الطراز من السلوك . حتى ليحاول كل منهم أن يأتي كل يوم بالطريف من ضروبه ...

وما كان أشد إعجاب (أبو طافش) بهؤلاء (القبضايات)! : إنه ليتعلم منهم كل يوم جديداً من التعابير الوقحة، ويكتسب الكثير من دروس الشدة التي تميز كل حركة أو سكنة منهم .

وأي مزية أكبر من أن يكون لكل منهم قصة عدوان على شرطي ، أو حادثة اصطدام مع حارس ، أو مشاركة في عملية تهريب للتبغ أو الحشيش !.. فإذا ضمهم ليل المقهى لم يكن فيهم صاح من سكر ، أو خالٍ من خدر .. وهناك ينطلقون في عرض مآثرهم ، وما واجهوه أثناء نهارهم ... مازجين ذلك كله بمقاذيف متجددة من العربدة ومسبة الدين ....

وكم كان الأسف يأخذ من نفس أبو طافش عندما يشعر أنه عاجز عن مشاركتهم في هذه المفاخر ، وذلك لأنه لم يتح له بعدُ أن يسجل واحدة من هذه المآثر . إنه لا يزال دون العشرين من سنه ، ومع أنه بدأ يكرع الخمرة ، ويجرب الحشيشة .. فإنه لم يتهيأ له الاحتكاك بأي شرطي ، ولم يعرف عنه إنه استعمل سكينه في أية خصومة !.. ومما يزيد في شعوره بالنقص ما يجري اليوم على ألسنة هؤلاء من ذكر لذلك الغلام الاسكافي الذي ضرب برشاقةٍ وجه أحد الناس بشفرة الحلاقة، فأحدث فيه عدة جروح،

ثم أطلق ساقيه للريح وأعجز الشرطة فلم تعثر له حتى الآن على أثر...

وبالأمس كان يصغي في إعجاب لحديثهم عن ذلك (الجدع) الآخر الذي (شلح) وحده سيارة على طريق الجبل. وقتل أحد ركابها. ثم غاب عن الأعين فلا يُدري له مكان!.

على أن أكثر ما يستهويه من هؤلاء أحاديثهم عن النساء والغلمان.. ففلان تسلق إلى صاحبته جدارها. وفلان استطاع اقتناص واحد من الصبيان... والآخر اشتهر بصاحب له فهو لا يكاد يفارقه في ليل ولا نهار!..

وجاءه النداء من أقصى أطراف المقهى يطلب إليه النار لإشعال التعميرة. فاستدار باتجاهه. وهو يردد: حاضر.. حاضر...

لم يكن وجه هذا الغلام اللبناني جديداً على (أبو طافش) فهو يلمحه أكثر من مرة أثناء عمله في النهار. إذ يمر بجانب المقهى في طريقه إلى المسجد المجاور لصلاة الجماعة... وكان نظره إليه جدّ طبيعي أول الأمر. ولكنه الآن يحدق فيه طويلاً، ويتابعه بالنظر حتى يغيب عنه في المنعطف المؤدي إلى حجرة الوضوء.

إنه يفكر فيه أكثر من أي يوم مضى، بل انه لم يفكر به قط قبل اليوم، ولا بد أن ذلك عائد إلى ما يتلقاه من زبائن الليل عن أخبار الصبيان، وأهميتهم بالنسبة إلى حياتهم التي لا يجوز أن تخلو من المغامرات..

وأدار فكره في السبل المختلفة التي يمكن أن تصله بهذا الغلام ... إنه مستعد لأن ينفق عليه كل دخله . وأن يبذل لاستمالته كل ما يملك من جهد .. ولا بد أن يكون للقوة الجسدية أثرها في نفوس الغلمان أمثاله ، فليُرِه منها ما يسترعي انتباهه ويستدعي إعجابه ..

وامتلأ خيال أبو طافش بموضوع الغلام اللبناني .. ولم يحاول قط أن ينفض رأسه منه . بل لقد أخذ يركز اهتمامه عليه في رغبة وإصرار ، حتى استولى عليه ، ولم يعد قادراً على تجاهله أو الانصراف عنه .

وجعل يُعنى بشيابه فيرتدي خيرها .. وبشاربيه فيكثر فتلهما وشدهما إلى الأعلى .. وتوج رأسه بلبادة من ذلك الطراز الذي امتاز به القبضايات .. وأحاط اللبادة بكوفية مقصَّبة أطافت بحافتها ، ثم أرسل طرفها بين كتفيه على طريقتهم الخاصة ، ولم ينس أن يدير على أعلى سراويله شملة حريرية عريضة طويلة ، ثم يغرس خلالها خنجراً لم يشأ أن يخفيه كله ، فأبقى رأس مقبضه في متناول الأعين ... إلا أنه كان يستره كلما لاحظ شرطياً عن بعيد ..

ولكن ... كيف يبدأ أبو طافش خطواته الأولى مع هذا الغلام ؟...

وترك لغريزته وحدها أن تعمل ... وأخذ يراقب وقت مروره ، حتى إذا انطلق المؤذن بدعوته لصلاة الظهر . أقبل يتهادى

كالطيف الباهر ، فلم يلبث أبو طافش أن خرج إلى طريقه ، وتركه حتى وازاه وهناك واجهه بالتحية : صباح الخير .. ولكن الغلام لم ترضه هذه المفاجأة . فاستمر في طريقه دون أن يسمعه ردّاً ..

وكان هناك من يراقب عمله فقال له : أرأيت كيف رفض تحيتك ؟...

وأجاب أبو طافش : بل ردّ عليّ ... ولكنك لم تسمع ...

ومضى لعمله يتردد بين الزبائن . مقدماً القهوة والنراجيل .. وكانوا قلة فلم ير حاجة للتفرغ لهم ، وراح ينتظر عودته في مكان مروره ... ولكن الغلام سلك طريقاً أبعد عن تلك النقطة ، فلما كان بموازاته جدّد أبو طافش تحيته .. ثم أردفه بهذا الدعاء الذي حفظه من أفواه المصلين يوجهه بعضهم إلى بعض وهم خارجون من باب المسجد : يتقبل الله ..

ويتمتم الصبي في حياء : منا ومنكم إن شاء الله ..

وكاد أبو طافش يطير اغتباطاً ، وتحول إلى ذلك المنكر ليقول له : أسمعت !؟. أرأيت ! :. ولم يَسَعَ هذا إنكار وأجاب : حقاً ... لقد سمعت !. ورأيت ..»

ومنذ ذلك اليوم طفق أبو طافش يعترض سبيل الغلام، كلما عبر من أمام المقهى في طريقه إلى الصلاة ، محيياً أو داعياً ... ويتجاوز ذلك أحياناً إلى لون من الغزل السوقي يعبر به عن إعجابه... لم يكن بد للغلام من أن يتجنب هذه المضايقات ... فكان يبتعد

أكثر فأكثر . وكان أبو طافش يرفع صوته بذلك الكلام أكثر وأكثر ، وكأنه يجد بذلك متعةً ، إذ يجتذب أسماع الزبائن فيتحدثون عنه . ويعلمون أنه قد بات كواحد منهم . له مناقبه وهواه ومغامراته ! ..

وكان على الغلام الحيي أن يحتاط لنفسه فيجنب سمعه هذا اللغو ، الذي يخشى أن يعلم به إخوته فيناله من العقوبة ما هو في غنى عنه .. وهكذا هجر طريقه هذا ، وجعل يسلك إلى المسجد سبيلاً غيره. وأحس أبو طافش بالتدبير الجديد فغضب واضطرب ، وراح يفتش عن السبب .. وعرضت لذهنه عشرات الأسباب : لعل الغلام مريض . لعله مسافر ، لعله ترك الصلاة ، أو لعل إخوته قد علموا بأمره فصرفوه عن هذا الطريق ؟...

واقترب من مشغل الأخوة يتقصّى أثر الغلام ، فوجده هناك مكباً على استصلاح أحد الطرابيش ... فحزر أن ثمة تدبيراً يراد به حمايته من كلامه ونظره .. وعاد إلى المقهى ينتظر أذان العصر ، حتى إذا ارتفع صوت المؤذن بالدعوة إلى الصلاة ، ترك مكانه ، وأخذ سبيله باتجاه المسجد .. وتسلل إلى موضع الوضوء يفتش عن طلبته ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى بصر بالغلام قادماً ، وقد أخذ يكشف عن ساعديه متهيئاً للوضوء .

ولم يستطع أبو طافش أن يتمالك .. فدنا من الغلام ثم بادره بالسؤال : لماذا انصرفت عن طريق المقهى ؟..

وكانت مفاجأة للغلام بعثت الرجفة في أعضائه كلها ..

وبهت .. ثم تكلم : وما شأنك بي !..

وأجاب أبو طافش وهو يقبض على كتفي الغلام بقوة : ألا تعلم أني ...

وصرخ الغلام وهو يحاول التخلص منه بكل قوته : دعني يا رجل ... اتق الله ...

واسترعى الحوار الغريب أسماع المتوضئين ، وكانوا قلة من الشيوخ ، فالتفتوا إلى أبو طافش مستنكرين ، وقال أحدهم : استحي يا رجل ... اتركه يتوضأ ...

وكان الغليان قد بلغ قمته في صدر أبو طافش . فإذا هو يخترط خنجره ، وفي لحظة خاطفة يغمده في صدر الغلام . وهو يصيح : إذن فلا بد من قتلك !...»

ها هي ذي سبع سنوات تمر على أبو طافش في السجن الالزامي ، وقبلها قضى أربعاً من السنوات في سجنه الاختياري الذي ضربه هو على نفسه ، في أعقاب ذلك الحادث الرهيب . إذ مضى على وجهه هائماً بين المجاهل . وقد أطاق لحيته ، وغير ثيابه ، وتظاهر بالعرج . وراح يقتل أيامه متنقلاً في أكناف البادية . متجنباً أبصار رجال الدرك والشرطة .. حتى توهم أن الطلب قد انقطع عنه . ولم يستطع مغالبة رغبته في الاطلال على ذلك البلد الذي سجل فيه مأثرته الأولى ، فإذا هو يعود ، وفي نفسه ثقة بأن أحداً لن يعرفه . ولن يمكّن أحداً من معرفته إلا بعض أولئك الذين بإيحاآتهم استطاع أن يكون شيئاً مذكوراً .. وحسبه أن يظفر منهم

بكلمة إطراء حتى يعود أدراجه إلى منفاه . وقد امتلأ رضى عن نفسه ...

وكان تقديره صحيحاً إذ استطاع الوصول إلى بلده بسلام ، وحتى أبوه لم يكتشف حقيقته إلا بعد أن واجهه هو بها .. وظل معتصماً في بيته قرابة الشهر . لا يفارقه ، ولا يظهر لأحد ، وقد طمأن قلبه ما علمه من عودة أهل القتيل إلى طرابلس مسقط رؤوسهم بعد أن يئسوا من العثور على قاتل أخيهم ...

وذات يوم ثارت في أعصابه ذكريات ذلك المقهى . فلم يتمالك أن يمضي نحوه في ساعة متأخرة من الليل . وهو متوقع أن يرى (الشلة) على عادتهم متقوقعين في تلك الزاوية التي طالما سمعت لغوهم وشهدت تهارشهم ... وسرعان ما وجد نفسه حيث أراد ، وقد تهاوت على سمعه أصوات بعضهم من بعيد . فما إن انتهى إليهم حتى أخذ يعانقهم واحداً واحداً .. ويذكر كلا منهم باسمه . ولم يطل بهم الأمر حتى عرفوه من صوته . وأقبلوا عليه يستوضحونه عن حاله وما يلاقيه ، وأين قضى أعوامه الأربعة !.. ولم ينسوا أن يسمعوه ما شاء من عبارات الإعجاب بتلك الشجاعة ، ثم بهذه البراعة التي مكنته من الاختفاء كل هذا الزمن !.

على أن أبا طافش لم يستمتع طويلاً بهذه الفرصة السعيدة ، إذ لم يكد يطمئن به المقام حتى فوجىء بعدد من الشرطة يطوقونه كأنهم معه على ميعاد !. ومن ثم بدأ تردده بين السجن ودار القضاء . حتى انتهى الأمر بإصدار الحكم عليه بسبع من السنين مع الأشغال الشاقة ...

وتلقى الحكم بغير مبالاة ، بل بشيء من الرضى . لأنه كان يتوقع الموت ، وكل شيء أهون وأيسر من حبل المشنقة . ولعله كان يرى السجن الذي صار إليه أرحم به من ذلك التخفي الذي يلاحقه أبداً بأشباح الشرطة ورجال الدرك .. أما الأشغال الشاقة فهي بالنسبة إليه ألعاب مسلية لا مشقة فيها ولا عناء ، بل إنـــه سرعان ما استحوذ على رضى حراسه، فإذا هم يكلون إليه مراقبة المحكومين الآخرين وهم يعملون في مقالع الحجارة ، أو تكسيرها على جوانب الطريق ، دون أن يعمل هو شيئاً سوى إصدار الأوامر لهذا وذاك ...

وذات مساء عاد أبو طافش مع رفاقه إلى السجن ليجدوا هناك نزيلاً جديداً يحتل زاوية صغيرة من عنبرهم ...

كان الرجل في العقد الخامس من العمر ، عليه سيما أهل العلم ، لحية خفيفة ، وعمامة بيضاء ، إلى نظرات حزينة يرافقها إطراق طويل ...

ولم يكن أبو طافش ممن يهتمون بهذا الضرب من الناس ، أو يقيمون وزنا لأهل العلم .. فلم يملأ نظره من وجهه ، ومضى دون ن يحييه حتى أخذ مكانه على فراشه في صدر العنبر ،وجعل يوقد الطباخ ليهيء بعض الشاي .. وعندما انتهى من إعداده صب منه في عدد من الأقداح ، قدم أحدها لذلك الشيخ الذي أخذه شاكراً ... ثم عاد إلى مكانه يخالسه النظر ، كأنما يرى فيه شيئاً طريفاً ! .

وبدافع من الفضول المحض وجه أبو طافش إلى الشيخ ، وهو يغمز بعينيه ، هذا السؤال الصغير : — خيراً إن شاء الله !.. أزائر أم سجين ؟..

ودون أن يرفع الشيخ رأسه أجاب في هدوء مثير : بل سجين يا بني .. والحمد لله !.

— وتحمد الله على السجن !..

وهنا قطع الشيخ إطراقته ، ونظر إلى أبو طافش في كثير من الاشفاق ، ثم قال له : الحمد لله على كل حال ...

— كل حال ... حتى السجن ؟!....

— أجل .. بل حتى الموت يا بنيّ ...

— أنا أفهم أن تحمد الله على الصحة ، وعلى المال ، وعلى ... كل شيء .. أما المصائب والبلايا ... والموت !..

وفي هدوء بالغ أجاب الشيخ : هذه يا بني دار بلاء ، ولا بد فيها من المصائب ، وبقدر الصبر والشكر يكون الثواب ، ثم يكون الحظ من نعيم الآخرة التي لا بلاء فيها ولا مصاب .. »

ولأول مرة في حياته يسمع أبو طافش مثل هذه المعاني المحيِّرة ... وعلى الرغم من أنه لم يعود نفسه التفكير في أي شيء من قبل ، وجد نفسه مطرقاً يدير هذه الكلمات في ذهنه دون أن ينبس ببنت شفة ... ثم خطر في باله أن يستزيد من معرفته فقال : وما الذي جاء بك إلى هنا ؟...

وأطرق الشيخ قليلاً قبل أن يجيب ثم قال : زعموا انني أتكلم في السياسة ...

– في السياسة !... وما السياسة التي تتكلم فيها ؟..

– قالوا إنني أحرض الناس على مقاومة الفرنسيين ... وعلى العمل لوحدة سورية ...

– وهل فعلت ذلك !..

– كلا ... أبداً .. ولكني أذكر الناس بربهم ، وأعلمهم ما يوجب عليهم دينهم ... وهذا ما يسمونه سياسة ...»

وصب أبو طافش للشيخ قدحاً آخر .. ثم آخر .. وسرعان ما ألفى نفسه مقبلاً عليه .. وهكذا توطدت الصلة بين الشيخ وأبو طافش ، وانضم إلى حلقتهما بقية الرفاق من نزلاء العنبر ... وما هي إلا أيام حتى استحال المكان مسجداً تقام فيه الصلوات .. وتعقد فيه حلقات الدرس .. ولم يكتف الشيخ بتعليم النزلاء أعمال الصلاة والعبادات الأخرى ، بل جعل يدرسهم بعض سور القرآن ، ويعلمهم كتابتها ...

وخلال الأشهر الستة التي قضاها الشيخ بينهم فاتحه أبو طافش بكل مشاكله .. وفي كثير من التخوف سأله عما إذا كان من حق مثله أن يتطلع إلى مغفرة الله !... ولم يرَ الشيخ أن يطفىء تلك الشعلة التي أحسها تتوهج في كل وجوده ، فقرأ عليه قوله تعالى : « قل لعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ..» ثم أخبره

أن عليه التزام التوبة النصوح ، والندم على ما فات ، والاقلاع نهائياً عن ذلك السلوك الشقي ، ثم الإكثار من الحسنات والاستغفار والدعاء لقتيله البريء ..»

وكم كانت مؤثرة ساعة فراقه الشيخ ، إذ ودع تلاميذه في غمرة من الأسى والدموع .. وكان آخر كلامه إليهم أن أوصاهم بتقوى الله في سرهم وعلانيتهم .. وبالتزام هذه الصلوات التي التي تذكرهم أبداً برقابة الله ، وقربهم من رحمته ...

* *

وجاء دور أبو طافش في مغادرة السجن ، فوزع أمتعته القليلة على رفاقه ، وسألهم الصفح عما يكون قد فرط منه نحوهم .. ثم ودع حراسه ، وجاوز مدخل السجن طليقاً لأول مرة بعد سنواته السبع .

وقبل أن يحدد اتجاه مسيره أرسل بصره في اتجاه المدينة ، كأنه يفكر في المرحلة التي هو مقدم عليها ، ثم جعل يخاطب نفسه : أين أمضي !... وماذا أعمل !...»

وخيل إليه أنه شيء غريب عن دنيا الناس ، وأنه غير قادر على الاندماج فيهم ، وكاد يتمنى لو أن مدة حبسه قد تتابعت إلى غير نهاية ، فلا يتعرض لهذا الشعور المرهق بكل هذا الضياع ..

وفجأة تذكر تلك الوصية الموجزة التي خصه بها شيخه ، حين همس في أذنه : « يا بني . إن موعد خروجك قريب ، فحذار أن تعود إلى ذلك المقهى المشئوم ، أو تخالط أحداً من رواده . ثم عليك

بخدمة أحد المساجد ..»

وكأن ثقلاً أزيح عن صدره، ففتح رئتيه لنفس طويل .. وتراءى له أنه قد عرف طريقه .. وقبل أن يتحرك لمح والده العجوز مقبلاً نحوه ومعه عدد من أولئك الرفاق القدامى ... وما هو إلا أن بصروا به حتى هرعوا اليه وهم يقولون :

– سلامات أبو طافش ...

– يا هلا .. أبو طافش ...

– ضوّت الدنيا يا أبو طافش ...

ولكن أبو طافش لم يحر جواباً ، وأقبل على والده يقبل يده للمرة الأولى في حياته ، ثم جعل يصافحهم واحداً فواحداً . وأخيراً لم ينس أن يقول لهم في اتزان لم يعهدوا له مثله : « اسمي أحمد أيها الاخوان .. هكذا سماني والداي .. أما أبو طافش فلا علاقة لي به بعد اليوم ..»

ومضوا جميعاً باتجاه المنزل .. وفي أثناء الطريق انطلق صوت المؤذن لصلاة الظهر ، فأخذ يردد معه مثل قوله ، ثم ختم ذلك بالصلاة على النبي والدعاء له . والتفت إلى والده ورفاقه يدعوهم لصلاة الجماعة .. ولكنهم كانوا في شغل عن هذا بما فاجأهم من أحواله ، فلم يزيدوا على أن واصلوا مسيرهم في صمت ، وتركوا له أن يتجه وحده إلى المسجد .

إلَيْكم المجْرم ..

كانت « أم سليم » قروية عريقة في قرويتها ، فهي لا تكاد تألف شيئاً من حياة المدن ، ولا تفكر بادخال أي تغيير على واقعها القروي ... وذلك أمر طبيعي بالنسبة إلى امرأة مثلها نشأت في جو كل شيء فيه يتحرك لخدمة البيت والحقل والدابة ، فلما بلغت سن الشباب زوجها والدها من ابن أخيه الذي لم يختلف عنها في شيء ، فلم تختلف عليها طريقة الحياة ، إذ ظلت مرتبطة بالأسباب نفسها التي شبت عليها في بيت أبيها .. حتى شكل المعيشة لم يتغير عندها إلا قليلاً ، بالقدر الذي لا بد من حدوثه تبعاً للتطورات الاجتماعية ، التي يفرضها الاحتكاك بين هؤلاء القرويين وسكان حمص ، التي لم تكن تبعد عن قريتهم إلا بضعة عشر كيلاً من الأمتار ...

وعلى الرغم من انقضاء أربعين عاماً على زواجها لم ترزق سوى اثنين من البنين .. أما أحدهما سليم ، وهو الذي تكنى به ، فقد أطل على الدنيا قبل ثلاثين عاماً ؛ وهو اليوم عمود بيتها — كما تسميه — اذ خلف أباه ، الذي توفي قبـــل بضع سنين

على عمله في خدمة الحقل وتأمين وسائل العيش لمجموع هذه الأسرة الصغيرة .. وأما الآخر وهو خالد . الذي أعطي هذا الاسم تيمناً باسم الصحابي العظيم نزيل حمص . فقد اختلفت نشأته عن أخيه . إذ التحق بالمدرسة الابتدائية . التي أحدثت في القرية المجاورة . منذ أشرف على الثامنة من سنيه . ثم استمر في التردد عليها حتّى نال الشهادة الابتدائية . فكان من أوائل المتخرجين فيها ... وكان الرأي أن يقف من الدراسة عند هذا الحد ، فينقطع لمساعدة أخيه وأمه في عملهما الذي لم يقطع صلته به أثناء ذلك ، إذ كان كأكثر أترابه من هؤلاء القرويين الصغار ، يقسم غالب أوقاته بين العمل والمدرسة ، وبخاصة في أيام الجني . حيث يستغرق النشاط أهل كل بيت ، فلا يتخلف عنه صغير ولا كبير إلا من عجز ... ولكن مواهب خالد هذا كانت سبباً في تعديل ذلك الرأي ، إذ جاء معلم المدرسة يلح على أبيه أن يهبه للعلم . لأنه في رأيه ذو استعداد ممتاز ... وجعل يفهمهم بأن حصوله بعد ثلاث سنوات على الشهادة المتوسطة من شأنه أن يفتح له الطريق إلى وظيفة يحسد عليها ... وبعد كثير من التردد . وكثير من الاستشارات قرّ رأيهم على ذلك ، وقد أعانهم على تحقيق هذا الاتجاه قيام بعض المدرسين بإحداث متوسطة خاصة في القرية المجاورة نفسها . فاستمراره على الدراسة هناك لن يكلفهم إذن سوى القسط المدرسي ، زيادة عما كانوا يتكلفونه على دراسته الابتدائية ...

وكان على أمّ سليم أن تضاعف من نشاطها للإسهام في

توفير ما يقتضيه ذلك من الاعباء الطارئة ، ولا سيما بعد أن بات واضحاً أن ثمة مصروفاتٍ لم تكن في حسبانهم، ولا بد منها لتأمين استمرار خالد في دراسته ... وهكذا أقبلت على المهنة الوحيدة التي تعلمتها في القرية إلى جانب مهماتها البيتية والزراعية ، فجعلت تحوك الطاقيات البيضاء الدقيقة الصنع ، لتبيعها في سوق المدينة ...

وعن هذا الطريق استطاعت أن توفر لولدها ليس قسطه المدرسي فقط ، بل سائر حاجاته التي لا غنى له عنها أيضاً ... ثم تعمل على ادخار ما يزيد عن ذلك استعداداً للطوارىء التي قد تفاجأ بها ذات يوم ...

* * *

وبلغ خالد الثامنة عشرة من عمره ... وأعلن اسمه في قائمة المطلوبين لخدمة العلم على باب عمدة القرية ... وكان في وسع أم سليم أن تكتفي بتأجيله الدراسي ، إذ يرجأ سوقه ما دام مستمراً في طلب العلم ... ولكنها علمت من المختار أن الأمر بالسوق قد يصدر بين يوم ويوم ، ولا سيما في مثل هذه الظروف التي تقتضي تقوية الجيش ... فخير لها والحالة هذه أن تدفع بدله خمسمئة ليرة سورية ، فتشتري بذلك حريته إلى الأبد ... ولن تعتبر هذا المبلغ خسارة ، إذ سيتاح له أن يعوضه خلال مدة يسيرة إذا أتم دراسته ، وأتيح له الحصول على الوظيفة المنشودة ...

وعقدت أم سليم العزم على أداء البدل ... ولو كلفها ذلك أن تقترض ما ينقصها من ذلك المرابي الذي يتعامل معه كثير من أهل القرية ...

ولم تتلكأ في تحقيق ذلك العزم ، فما هي إلا أن حصلت على مئة الليرة التي تعوزها مقابل مئة وثلاثين تؤديها إلى المرابي خلال عشرة أشهر ، حتى تهيأت لهبوط المدينة في أول الأسبوع القادم .

وكررت عدّ الليرات مرة ومرة . حتى إذا اطمأنت إلى وفائها بالمطلوب . حشرتها في كيس متين علقت خيطه في رقبتها . ودسته ما بين ثوبها وصدرها ... وما إن أشرقت شمس اليوم التالي حتى هرولت تقطع الطريق الوعرة باتجاه الجادة التي تسلكها السيارات ما بين حماة وحمص . ولم يطل انتظارها فاذا هي بسيارة قديمة تقف لها ، فتأخذ مكانها من مقعدها الخلفي إلى جانب إحدى القرويات ... على أن ركب السيارة لم يكونوا قاصدين إلى حمص ، فأخذوا يغادرونها تباعاً بين كل مفرق ومفرق . حتى لم يبق منهم أحد . وفجأة وجدت نفسها فريدة في هذه السيارة ، التي لا تدري متى تصير إلى حمص ، ما دام سائقها يقف لكل عابر . وينتظر من يشير اليه ليظفر بأجرته ! ..

وخافت المرأة أن يفوتها وقت الدوام في مكتب التجنيد ، وهي لا تعرف موقعه ، ولا تدري كيف تعامله ، وكم تستغرق مهمتها ... وهل تتاح لها سيارة تعيدها إلى القرية في الوقت المناسب ؟! ...

ورأت أن تستثير إنسانية السائق ، فذكرت له حاجتها للوصول إلى حمص في أسرع وقت ممكن . وأوضحت له غايتها من ذلك . وأنها تريد أن يبلغها مكتب التجنيد لتتمكن من دفع بدل ابنها قبل نهاية الدوام ...

والظاهر أن كلماتها تلك قد تركت أثراً بعيداً في نفس السائق ، فلم يعجل إلى الإجابة ، وبعد تردد غير يسير قال : لا يقلق بالك ... سأوصلك إلى حيث تريدين في الوقت اللازم .. »

واستمر دويّ السيارة القديمة يملأ سمع أم سليم ، وتتابعت فرقعتها تلسع وجه الطريق ... وغرق السائق والمرأة في غمرة من الصمت ، وفي صدر كل منهما أفكاره الخاصة وتأملاته ...

وكانت أم سليم كثيرة التفقد لصدرها ، تتلمسه بين اللحظة واللحظة ... وهي مطمئنة إلى أن أحداً لا يراها ، ولو هي قد رفعت بصرها إلى المرآة المثبتة أمام السائق ، لأدركت أن ثمة عينين لا تبرحان تلاحظان حركة يدها باهتمام ...

كانت أفكار أم سليم محصورة في مستقبل خالد ، فهي تتابع بتصوراتها تطوره ... فتكاد تراه وقد نجح في امتحان الشهادة القريب . ثم تلمحه وقد أصبح معلماً في مدرسة القرية التي نال شهادتها الابتدائية ... فما تكاد تبلغ بتصوراتها هذا حتى تتساءل : والآن لا بد لك يا خالد من زوجة ... فمن هي صاحبة الحظ ؟ ... وكيف سيكون شأنها معنا ؟! ... » .

وتقلب كفيها في صمت ... وتتذكر أن سليماً وهو أكبر

ولديها لم يتزوج بعد ، ولا يحسن أن يسبقه أخوه إلى ذلك .. فعليها أن تثير معه موضوع الخطبة من جديد . وعليها أن تفتش له عن عروس أخرى ، غير تلك التي حال طمع أهلها دون نصيبه منها ...

والغريب أن تأملات السائق لم تكن بعيدة عن هذا الاتجاه ... فهو شديد الضيق بذلك التشديد الذي يلقاه من أهل خطيبته ، إذ يأبون أن يزوجوه إلا بعد أن يوفر لبيته أثاثاً كاملاً . لا يقل عن مفروشات مستأجره صاحب هذه السيارة التي يسوقها الآن ! ..

ولقد استطاع خلال سنتين . وبمختلف الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، أن يؤمن لبيته معظم المطلوب . ولم يبق عليه إلا ثمن الكنبات الذي لا يقل عن ستمئة ليرة ! ...

ووقف ذهنه عند هذا الرقم ... وراح يستعرض امكاناته ، والأبواب التي يسعه ولوجها للحصول على هذا المبلغ ... وتحركت في قلبه كل نزغات التحدي ... وتذكر أنه لا يزال يملك الساعدين اللذين طالما استعملهما في تخويف الآخرين وإيذائهم والحصول على أغراضه التافهة من أي سبيل ...

صحيح أنه قد عطل هاتين اليدين بعض الوقت . حتى ظن رفاقه أنه قد طلق ماضيه إلى غير رجعة ... ولكنه لم يفقدهما ، ولم يزالا قادرتين على نجدته . فلم لا يلجأ اليهما لتأمين حاجته ... ثم ... ثم يقلع عن كل شر بعد أن يكون قد حصل على ما يحلم به من الاستقرار !! ...

* * *

ولاحظت أم سليم الانحراف الذي طرأ على مسلك السيارة فخرج بها عن الجادة ... فلم تتمالك أن تسأل السائق : إلى أين ؟! ... وسمعت الجواب المقنع . فهو يريد موافاة الجانب الآخر من الطريق باقتصار المسافة التي يستغرقها الانحناء الطويل ..

ولم تجد ثمة مجالاً للأخذ والرد . فالسائق مصمم على هذا الاختزال الذي قد يكون في مصلحتها . وها هوذا يوغل في الأرض العراء بأقصى ما تمكنه السيارة من السرعة بين هذه الحجارة التي تهزها بل تخضها خضا ...

وفجأة تتوقف السيارة بعد إطلاقها عدداً من المفرقعات الشديدة . وسكت المحرك ... ولكن أم سليم لم تر حاجة للاعتراض . لأنها شاهدت السائق وهو ينقل يديه بين مختلف الأجهزة لتحريكها دون جدوى ... ثم يهبط منها ليرفع غطاء المحرك محاولاً الوصول إلى موضع الخلل لكي يصلحه ...

وأبطأ السائق في عمله . فنزلت أم سليم من مكانها لتنظر في ما يعمل . وقد ارتفع وجيب قلبها حتى كادت تسمع ضرباته ... وسألته : ماذا حدث ؟ ...

قال : خلل بسيط ... وسأصلحه حالاً ...

وأمسك طرف أحد الأسلاك وهو يقول لأم سليم : من فضلك امسكي بهذا قليلاً .. وبشكل عفوي أمسكت السلك ... فلم يلبث أن ترك مكانه ليأتي ببعض الأدوات .. وما هي الا

لحظة وأختها حتى كانت المرأة هاوية إلى الأرض والدم يتفجر من مؤخرة رأسها ! ..

ولم يتريث السائق المجرم فمد يده إلى صدرها ينتزع الكيس العزيز ... وما كاد يحرزه حتى فوجىء بدوي سيارة من بعيد ... فلم يدر ما يصنع . وبسرعة خاطفة دس الكيس تحت الصخرة القريبة . ثم أخذ مكانه خلف المقود . وأدار محرك السيارة . ثم انطلق بها إلى الجادة . فبلغها قبل أن تظهر أية سيارة أخرى ... حتى إذا اطمأن إلى خلو الطريق عاد إلى موضع الجريمة . وهبط إلى ناحية الصخرة ليستل من تحتها وديعته ، غير أنه ما إن لمس الكيس حتى بوغت بما لم يتوقع ...

لم تكن الضربة الغادرة بالقاضية على أم سليم . على الرغم من شدتها وعمق الجرح الذي أحدثته في مؤخرة رأسها . ومرد ذلك إلى كثافة الطرحة التي أحاطت بها رأسها لتدرأ لسعة الجو ... فلما زايلها الإغماء فطنت لأمرها . وتذكرت وضعها . ولمحت آثار الدم على ثوبها . وقد بدأ يتخثر بتأثير البرودة . فاستوت جالسة . وراحت تضغط جرحها بطرف ردائها ، ثم أخذت تمشي ببطء نحو الجادة ، مبتعدة عن السيارة المشئومة بكل ما تملك من جهد ، خشية أن يراها سائقها مرة أخرى أو تراه ...

وشاء الله أن تطل أثناء ذلك إحدى سيارات الأشغال العامة ، فجعلت تشير اليها بيدها ، دون أن تستطيع رفع صوتها ...

وما هي إلا ثوان حتى أخذت السيارة سمتها باتجاه أم سليم ، وهناك قصت على الرجال خبرها . فأخذوا بيدها إلى سيارتهم ، ثم واصلوا طريقهم إلى موضع الجريمة . فاذا هم يفاجئون بما لا يتوقعون :

السائق الجاني فاقد الحياة . وفي قبضته الكيس ... وعلى مقربة منه أفعى رهيبة قد انتصب بعضها فوقه ، وغاب أكثرها تحت الصخرة... وجعلت تحدق نحوهم بعينين حمراوين لا تطرفان... وقد راح لسانها المشطور ينضنض في مختلف الإتجاهات .. فما إن بصرت بهم شاخصين إليها مبهوتين ، حتى انسحبت إلى جحرها في رشاقة . وكأنها تقول لهم : إليكم المجرم ![1] ... ».

(١) أخذنا أصول هذه القصة من خبر نشرته احدى الصحف السورية قبل عشرين سنة ، وبعد طبعها هنا أخبرنا أحد الاصدقاء أن اللواء محمود شيت خطاب قد صاغ هذه الاصول نفسها في قصة .

المؤلف

الفهرس

آثار المؤلف

١	— فضائح المبشرين	رد على شبهات	نفد
٢	— اليوبيل الذهبي	دراسة عن المجتمع النصيري	نفد
٣	— المرشد في الأدب العربي	بالاشتراك مع بعض المدرسين	نفد
٤	— نار ونور	مجموعة شعرية	نفد
٥	— من تراث الأبوة	مسرحية تاريخية	نفد
٦	— قصص من الصميم	مجموعة قصصية	نفد
٧	— قصص من مجتمعنا		
٨	— قصص من سورية	طبعة ثانية	
٩	— قصص للشباب والطلاب	طبعة ثانيه	
١٠	— بطل إلى النار	طبعة ثانية	
١١	— قصتان من الماضي	طبعة ثانية	
١٢	— صور من حياتنا	طبعة ثانية	
١٣	— نظرات تحليلية في القصة القرآنية	طبعة ثانية	
١٤	— دروس من الوحي		نفد
١٥	— (الأدب العربي) للسنة الأولى من الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة	بالاشتراك مع أحد الأساتذة	
١٦	— (الأدب العربي) للسنة الثانية من الجامعة		
١٧	— همسات قلب	مختارات من شعر المؤلف	
١٨	— مشكلات الجيل في ضوء الاسلام		
١٩	— تأملات في المرأة والمجتمع		
٢٠	— مشاهد من حياة الصديق		
٢١	— أفكار اسلامية		
٢٢	— الآيات الثلاث	حوارية طويلة	

يصدر قريباً

١	— صور ومشاعر	مذكرات أدبية
٢	— أحاديث قصيرة	
٣	— من أجل الاسلام وحواريات أخرى	
٤	— قصتان من الماضي	طبعة ثالثة